الأعلام من الأدباء والشعراء



العباس بن الأحنف

شاعر الحب والغزل

إعداد

محمد علي الصباح

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



إعداد
محمد علي الصبّاح
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

يُعَدُّ العباس بن الأحنف ظاهرة فريدة في دنيا الشعر والأدب في العصر العباسي، لأنه أول شاعر متخصص - كما نقول الآن بلغة العصر - وتخصصه هذا كان في المرأة لا يتعداها إلى سواها من الموضوعات، فكان بحق شاعر الحب والغزل العفيف والشكوى والتوجع، لم يتجاوز ذلك إلى رثاء أو مديح أو هجاء، كما فعل أقرانه في العصر العباسي. لقد عاش حياته للحب والشعر، وسَخَّر ملكته الفنية السخية للفن وحده، يُسعد به الناس دون أجر، ويدخل السلوى إلى قلوب المحبين دون جزاء، فلم يمدح عظيماً أو صاحب سلطان، ولم يهجُ خصماً، فكان بحق قيثارة عذبة الإيقاع على شفتي الزمان، وطائراً غريداً يشدو بأرق الأنغام وأعذب الألحان، كانت حياته مسرحية عاطفية رائعة تخللتها حرارة الحب، ومرارة الصد، وحرقة الشكوى، ولوعة العشق، وفرحة الوصل، وأمل اللقاء، ومشاهد الحرمان.

كان العباس بن الأحنف يتنفس حباً، ويفكر حباً، ثم مات وجداً وحباً، فكانت وفاته قصة محزنة مفجعة، فقد وافته

المنيّة غريباً وحيداً مسافراً، هائماً على وجهه على طريق الحجيج، وأسهم في مشهد وفاته غلامه وطائر حزين يشكو ألمه ويبث حزنه من على فرع احدى الأشجار القريبة في مكان احتضار الشاعر، ثم شارك في تكفينه والصلاة عليه قافلة من حجيج بيت الله. مما سوف نعرفه لاحقاً عن هذه القصة كما رواها لنا أديبنا الكبير الأصمعي. حقاً لقد كانت حياة العباس بن الأحنف كما وصفها في إحدى قصائده، شمعة تضيء للناس وهي تحترق:

أُحْـرَمُ مِـنْـكُـمْ بـمـا أقـولُ وقـد
نـالَ بـهِ الـعَـاشِـقُـونَ مَـنْ عَـشِـقُـوا
صِـرتُ كـأنّـي ذُبـالـةٌ شـغُـلتْ
تَـضِـيءُ لِـلـنَـاسِ وَهْـيَ تَـحْـتَـرِقُ

سمات مجتمع العصر العباسي

أ ـ مجتمع جديد: كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالاً، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر والعراق وإيران والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب؛ وهي أوطان كثيرة كان يعيش فيها منذ القديم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة.

فهو إذن مجتمع يختلف في تكوينه وتركيبه وثقافته وعاداته عن المجتمعات السابقة التي ألفناها في صدر الإسلام وعهد بني أمية، ونعني به ذلك المجتمع الذي ولد أبناؤه ونشأوا في ظل الدولة العباسية، بكل ما تميزت به من سلوك ثقافي، وما انفردت به من تحلل اجتماعي جاء نتيجة لتغير المجتمع من عربي السلوك إلى فارسي السمات، ومن ريفي العادات إلى مدني المنزع والمسلك، فمن المُسَلَّم به أن المدينة بتزاحم سكانها، وضعف الرابطة بينهم وكثرة الغرباء فيها والوافدين

إليها مما يجعلها قابلة لكل أسباب الانحراف ومظاهر التحلل.
أضف إلى ذلك إنشاء عاصمة جديدة تماماً هي بغداد، في اقليم يختلف عن اقليم العاصمة السابقة الكوفة والشام، في نطاق ثقافة وعادات وافدة غريبة على العرب هي الثقافة والعادات الفارسية، تحت حكم سياسي مختلف هو الحكم العباسي المستند إلى النفوذ الفارسي؛ كل هذه المعطيات كانت منطلقاً لمجتمع جديد ذي عادات جديدة بعضها أصيل وبعضها الآخر ناشىء مختلق، وأفكار جديدة أقلها حسن مقبول وأكثرها مرذول.

وتصدر موائد الشعر في هذه المرحلة جماعات من الشعراء أكثرهم من غير العرب، وحتى العرب منهم على قلتهم كانت البيئة الجديدة قد أفسدتهم وجعلتهم يقبلون من العادات ما يستقبحها قومهم، ويتبعون من السلوك ما يتنافر مع تقاليدهم ومروءتهم، حيث جعلوا الخلاعة شعاراً، والمجاهرة بالفاحشة عنواناً، والتحلل الخلقي ديدناً، والابتعاد عن القيم مقصداً، والزندقة معتقداً.

شعراء خلعوا العذار، ونضوا الحياء، وجاهروا بالمعصية، وأعلنوا الانحلال الخلقي وتبنوا الزندقة حيناً والشعوبية حيناً آخر. وليس بينهم إلا من هو متهم في عفته أو عقيدته، فقد كانوا دعاة إلى كل مأثم ومبشرين بكل انحراف.

لقد أشاعوا الخمر ومجالس الخنا، واعلان معاشرة الغلمان، والتطرف بإعلان الإلحاد والسخرية من الدين، فضلاً عن نمو الشعوبية والحملة على العرب وتحقيرهم والفخر بالفرس والعصبية لهم. إن هؤلاء هم أبناء البيئة الجديدة بخيرها وشرها.

ب ـ الشعوبية: نادى الإسلام بقوة لهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، فلا عدناني ولا قحطاني، ولا عربي ولا أعجمي، إنما هي أمة واحدة يتساوى أفرادها في جميع الحقوق والواجبات ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح؛ غير أننا لا نكاد نصل إلى عصر الخليفة الرابع وما نشب في عهده من حروب وفتن، حتى نرى العصبيات القبلية تعود مجدداً بين القبائل، بل لقد اضطرمت اضطراماً لم يهدأ أواره طوال عصر بني أمية. وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادَّة الدين في معاملتهم للموالي، مما سبب في اضطغانهم على العرب، وعظم حقد هؤلاء الموالي على الدولة الأموية، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم، فالتفت جماعات كثيرة منهم حول أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش عظيم أدالوا به دولة بني أمية لصالح العباسيين، فتراجع بذلك العنصر العربي وبرز على

الساح العنصر الفارسي، فنفذ إلى المناصب العليا في الدولة العباسية الجديدة التي قامت على أنقاض الدولة الأموية، بحيث صار منهم أكثر القواد وأكثر الولاة، وخاصة حين استولى على مقاليد الحكم البرامكةُ في عهد الرشيد، وبنو سهل في عهد المأمون.

وقد كان هذا التحول الخطير في انتقال مقاليد الحكم إلى المجتمع العباسي سبباً في بروز النزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وهي نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب ـ وخاصة الشعب الفارسي ـ للعرب مفاخرة مستمدة من حضارتهم، لما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة، فنظروا إليهم نظرة ازدراء ورفعوا أنفسهم فوقهم مراتب، هؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبية، إذ قوموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقّصوا قدرهم وصغّروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة، وكان منهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم القوميون الذين كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوّضوا أركان دولهم، وهي مشاعر ما زالت تحتدم في نفوس الفرس خاصة حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع

بالحياة. فالشعوبية إذن هي هذا التعصب الفارسي وغير الفارسي ضد العرب، الذي كشف القناع عن وجهه في ظل الحكم الهاشمي العباسي المعتمِد على ركائز فارسية، الأمر الذي سار بالمجتمع الإسلامي إلى التمزق والتشرذم، وكان حصاده شوكاً وعلقماً، وقد اعتمد هؤلاء الشعوبيون على مبررات يلتمسونها لأنفسهم تأخذ حيناً شكل الدفاع عن النفس وأحياناً كانوا ينطلقون من عقدة كراهيتهم للعرب فيهجونهم متطوعين دونما مبرر لهجائهم، أو دون أن يحفلوا باختلاق سبب لهذا الهجاء. فقد كان الشاعر منهم يُنشىء طرازاً من النقائض يثلب فيها مجد أمة العرب، ويفاخر بقومه الفرس، ويذكر انتصاراتهم على العرب، مع نيل شديد من مروءات القبائل العربية، وفخر شديد بأعجميته وفارسيته.

ج ـ **الزندقة**: إن الملاحدة الزنادقة[1] كانوا أشد عنفاً وغيظاً من العرب، وكانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة، وكانت أهم مطاعنهم التي وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً رعاة أغنام وإبل[2]، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم، فأين هم قديماً من ملك الاكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من

(١) وهم أصحاب المذهب القائل بدوام الدهر من أصحاب زرادشت.

(٢) جِمَال.

الحضارة الفارسية والرومية؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان؟ وأخذوا يتتبعون مثالبهم ويحصونها عليهم ويستقصونها، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق في السياسة وبين ما للعرب من حكم منثورة، كما حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم. وزعموا ـ فيما زعموا ـ أن الرسول ﷺ فضلهم على العرب، وحاولوا أن يستلوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم. كما كان رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر بن الحسين كانوا يُذَكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس. وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر. ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشر الزندقة بين الناس ونشط معهمٍ كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحَل الفارسية ويصنفون في الدعوة لها وفي تعاليمها، كما أن بعض النصارى نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصارى وملاحدتهم، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس، وكانت البصرة أكبر وكرٍ حينئذٍ للزنادقة والملاحدة، ففيها نبت وعاش بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وحماد عجرد وغيرهم، وكانت الزندقة قد ارتبطت في وقت ما بالظرف حتى أصبحت صفة

زنديق من دلالات ظرف صاحبها، وكان المرء منهم يصطنع الزندقة حتى يقال عنه إنه ظريف، فهذا الشاعر محمد بن زياد الخاركي اصطنع الزندقة وها هو يعلن زندقته في شعره فيقول:

قد كنتُ أرجوك إلى سلوةٍ
فطال في حبْسِ الضَّنى لبثي
وعشتُ كالمغرورِ في دينه
يُوقِنُ بَعْدَ الموتِ بالبعثِ

وكذلك أبو نواس يعلن زندقته في عرض حياته ولم يعد إلى دينه إلا حين دب في جسمه دبيب الموت وها هو يعلن زندقته حيث يقول:

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ
لا قدرٌ صح ولا جَبْرُ
ما صَحَّ عندي من جميع الذي
تذكرُ إلا الموتُ والقبرُ

كما كان يحيى بن زياد الحارثي ـ وهو ابن خال أبي العباس السفاح ـ يعرف بالزنديق لظرفه، وكان يضرب به المثل، فإذا أريد وصف إنسان ما بالظرف قيل: أظرف من الزنديق وقد عُنيَ بذلك يحيى بن زياد نفسه. وفي هذا المعنى يقول الشاعر الحصيف:

تَـزَنْـدَقَ مُـعْـلِنـاً لِـيـقـولَ قـومٌ
إذا ذكـروه زنـديـقٌ ظـريـفُ

د ـ **المجون**: ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهوٍ ومجون، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ويمعن الناس معهم، فقد مضوا يعبون الخمر عباً ويحتسون كؤوسها حتى الثمالة، وحاكاهم في ذلك من عايشهم حتى أصبح الإدمان عندهم ظاهرة عامة، وأضحت نـدوات المُجَّان من الشعـراء من الانحلال والتهتك بحيث لم نشهد لها مثيـلاً في تاريخ المجتمع الإسلامي لا من قبل ولا من بعد، لقد كان هؤلاء يلتقون في الأماكن العامة، ثم يحاول كل منهم أن يستأثر بالمجموعة في بيته أو بستانه حيث يخلعون العذار ويعاقرون من ضروب الشراب ويمارسون من أسباب الانحراف ما شاءت لهم طبيعتهم أن يمارسوا، فَيُقْدِمُ كلٌّ منهم على وصف ما سوف يُقَدِمُ لصحبه من أنواع الإغراء غير الحلال، ويصوغ لهم ذلك كله في قالب من الشعر، ومن يبذل مغريات أكثر في شعر أملح يفوز بالعصبة؛ وكثيراً ما كانت بعض النساء الشاعرات الماجنات تشاركن في هذه الندوات، على أن هؤلاء

لم يكنَّ من الحرائر، وإنما كُنَّ على الأغلب من القيان وفي مقدمتهن القينة عنان جارية الناطفي.

فهذا الشاعر القراطيسي الكوفي صديق أبي نواس وأبي العتاهية، يدعو رفاقه من المجّان إلى بيته، وها هو يغريهم بكل أسباب المحرَّمات:

ألاَ قوموا بأَجْمَعِكُمْ إلى بيت القراطيسي
فقد هيَّأ لنا النَزْلَ غلامٌ فارِهٌ طُوسِي
وألواناً من الطيرِ وألواناً من العيسي
وقيناتٍ من الحُورِ كأمثالِ الطَّواويسِ
. . . .

وواضح أن البيت الأخير لم نستطع إدراجه لإباحيته.

ويورد أبو الفرج الأصفهاني من مجون هذه الجماعات، أن يحيى بن زياد ومجموعة من المجَّان اجتمعوا في بيت مطيع بن إياس فشربوا أياماً تباعاً، فقال لهم يحيى ليلة من الليالي وهم سكارى: ويحكم، ما صلينا منذ ثلاثة أيام فقوموا بنا حتى نُصلي، فقام مطيع فأذن وأقام، ثم قالوا: من يتقدم للإمامة؟ فتدافعوا كل يريد أن يكون إماماً، فقال مطيع للمغنية تقدمي فصلي بنا، فتقدمت تصلي بهم وهي غير مؤتزرة إلّا بغلالة رقيقة، وبقية القصة نضرب عنها صفحاً لما

فيها من فحش ينكره إبليس نفسه. من يريد الاطلاع عليها كاملة فليرجع إلى كتاب الأغاني ١٣ / ٣٢٦.

وبلغ تمادي القوم المُجَّان في عبثهم إلى المدى الذي جعلهم يتخذون من المسجد مكاناً لمجونهم وانحرافهم. ومجون القوم في أقوالهم وأشعارهم ومجالسهم لمما يعطي صورة كريهة عن مجتمع هؤلاء القوم الذي لم يكن عصرهم كله شراً، بل كان إلى جانب ذلك عصر ثقافة وتأليف وبداية ثورة فكرية علمية إسلامية.

هـ ـ الرقيق والجواري والغناء: كثر الرقيق في العصر العباسي كثرة مفرطة بسبب كثرة أسرى الحروب وانتشار تجارته ورواجها، حتى كان في بغداد شارع خاص بتجارة الرقيق يُسمى شارع الرقيق، وكان يقوم عليه موظف يُسمّى قيِّم الرقيق.

وقد أولع الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد بالرقيق حتى قيل إن الرشيد سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم، وشُغف المعتصم أيضاً بالرقيق التركي خاصةً، حتى اجتمعوا له بالآلاف واضُطر أن يبني لهم سُرَّ من رأى كي يجنب العامة شرهم وأذاهم. وكان يشيع بين هؤلاء الرقيق الخصيان، حيث نجد أن القصور في بغداد وغيرها من بلدان العالم

الإسلامي تكتظ بهم. وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد زخرت بهن الدور والقصور، وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر، لأنهن كُنَّ من أجناس مختلفة، ولربما لعب الحجاب عند المرأة الحُرَّة دوراً في ذلك، فقد كان الرجل لا يرى من يريد الاقتران بها من الحرائر، أما الجواري فكُنَّ معروضات بدور النخاسة تحت سمعهم وبصرهم، فكانوا يختارون منهن حسب رغباتهم وأهوائهم، وكانت الجواري والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثرن تأثيراً واسعاً في أبنائهن وأزواجهن ومحيطهن، وقد امتدت آثارهن إلى قصر الخلافة نفسه وأثَّرت به تأثيراً عميقاً، فقد كان أكثر الخلفاء العباسيين من أبنائهن، فالمنصور أمه حبشية، والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية الأصل، والمأمون أمه مراجل فارسية، وكذلك كانت أم المعتصم ماردة فارسية أيضاً. وكانت أم الواثق رومية وتُدعى قراطيس. وقد أخذ هؤلاء الجواري يكثرن في قصور الخلفاء منذ عهد المهدي وكان بينهن من يعلقن الصلبان. واستكثر الرشيد وزوجته زبيدة من الجواري والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفي جارية في أحسن زي من الثياب والجوهر، وكانت كل من سِحْرٍ وضياءٍ وخُنُثٍ من بينهن يشغفن قلب الرشيد وفيهن يقول بلسان

العباس بن الأحنف:

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِناني
وحَلَلْنَ من قلبي بكلِ مكانِ
ما لي تُطاوعني البريَّة كُلُّها
وأطيعهن وهُنَّ في عصياني
ما ذاك إلا أَن سلطان الهوى
- وبه عَزَزْنَ - أعزُّ من سلطاني

وكان قصر الأمين يزخر بالجواري الغلاميات اللاتي يلبسن لبس الغلمان، وزخر قصر المأمون بالجواري المسيحيات، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق.

وكانت قصور الوزراء والأمراء والقواد ودُور عِلْيَة القوم تمتلىء بهن، وكان يغشى هذه الدور الشعراء، وكثيراً ما يقع حب جارية في قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلاً، وعلى هذا النحو كانت دُور النخاسة[1] والقيان معارض للجمال، وهي معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغيرهم يتملين بالجمال ومفاتنه. وقد يشتري الجارية منهم الخليفة أو أحد الوزراء أو الأمراء أو القادة المشهورين، أو أحد العِلية من أبناء البيوتات، فيظل

---

(١) دور بيع الجواري والقيان.

الشاعر متعلقاً بها، وتظل تملك عليه أمره، على نحو ما كانت تملك عُتبة إحدى جواري قصر المهدي قلب أبي العتاهية، وجنان جارية الثقفيين قلب أبي نواس، وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب شاعرنا العباس بن الأحنف.

وكانت كثيرات منهن يحطن بفنون القول والأدب، فكنَّ يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث، فيملكن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم، بل كان منهن من يتقنَّ نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي، وسكن جارية محمود الوراق، وكان منهن من يضفن إلى ذلك إجادة العزف والغناء فكنَّ فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت عليه دنانير جارية البرامكة، ومتيَّم جارية علي بن هشام أحد قواد المأمون وعَرِيب جارية الأمين والمأمون.

وكان للغناء في نفوس الناس في هذا العصر أثر أي أثر، فقد شغلوا به أي شغل، فكان نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج، وقد انتقل فن الغناء من الحجاز إلى العراق في أواخر عصر بني أمية، وقد نقله ابن رامين الكوفي فإنه استقدم مغنيات من الحجاز، وأقام داراً واسعةً يقصدها الناس. وما تكاد تنشأ بغداد ويطل عصر المهدي حتى تصبح بغداد داراً كبيرة

للغناء، وكان أول من أولع بالغناء من الخلفاء العباسيين الخليفة المهدي، واقتدى به الهادي، وخلفهما فيه الرشيد حيث جعل المغنين مراتب وطبقات، وهو الذي طلب إلى ابراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفُلَيْح بن أبي العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التي أدار أبو الفرج الأصبهاني كتابه الأغاني عليها فيما بعد؛ وكان الأمين يعيش للسماع والقصف، وكان في المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات، ثم أقبل عليه فملأ مجالسه بإسحاق الموصلي ومخارق وغيرهما، كما كان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغاني.

وكان من أبرز المغنين إبراهيم الموصلي، وابن جامع مغني الرشيد، ومنهم أيضاً مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته، ومنهم عَلُّويه، الذي كان يقول فيه الخليفة الواثق: غناء عَلُّويه مثل نقر الطست يبقى في السمع ساعة بعد سكوته.

وكان أنْبَهُ المغنين في العصر إسحاق الموصلي، الذي تلقى فن الغناء عن أبيه ابراهيم الموصلي، والضرب على العود عن زلزل، ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير. وقد بلغ من رقي هذا الفن وارتفاع

شأنه أن أقبل الخلفاء وعِلية القوم على تعلمه وإتقانه. وأشهرهم في هذا ابراهيم بن المهدي وأخته عُليَّة، وممن برع أيضاً في الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه هو عبد الله بن طاهر، وأبو دلف العجلي قائد المأمون المشهور.

وقد أخذ هذا الغناء الذي ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجواري المسمَّين بالقيان اللائي كُنَّ يتقنّه، ويدلعن ناره في القلوب. وكان هناك أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى، يذهب الناس إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وكل لون، وكثيراً ما كان يقع الشعراء في حب بعض الجواري المكتملات الخَلق الجميلات الجسد، فيستأثرن بكل ما فيهم من عاطفة وهوى.

كما ان كثيرات من هؤلاء القيان والجواري كُنَّ يحسن الرقص، ويظهر أن الرقص قد بلغ يومئذٍ حظاً واسعاً من الرقي، وقد أشاع هؤلاء الجواري والقيان كثيراً من ضروب الرقة والظَّرف وكثرة معاشرة الرجال لهن جعلتهم يتعودون كيف يتلطفون ويستحوذون على قلوبهم وكيف يخطبون ودّهن بالكلام الرقيق، وكيف يحيطونهم بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملأوها بالعطف والحنان، وكان لذلك أثره البالغ في الشعر والشعراء، فقد شاع في كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة.

واقترنت بهذه المعطيات جميعها مظاهر كثيرة في الأزياء وفي العطور وآداب الطعام والسمر، ومن أهم مظاهره تهادي القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها إلى معاني المودة والمحبة. وعلى هذا النحو كانت الجواري والقيان من العوامل الفعالة في انتشار الظُّرف والرقة في المجتمع العباسي حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه، وبذلك رقت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهافاً شديداً.

و ـ الزهد: ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حِدَة ولكنها لم تكن عامة في المجتمع، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين، أما عامة الناس فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً، وإذا كانت حانات الكرخ ودور النخاسة والمقينين اكتظت بالجواري والإماء والقيان والمغنين، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعباد والنساك وأهل التقوى والصلاح. ولا شك أن الغلو والتطرف في جانب من جوانب السلوك عند بعض الناس، يقابله غلو وتطرف عند الجانب الآخر منهم، لقد غالَى

القوم في تلك الفترة واشتطوا في طلب الدنيا، وبالغوا في طلب الملذات، وأسرفوا في الركض وراء الشهوات، ولم يقف الشطط بهم عند ذلك الحد، بل اندفعوا إلى الزندقة والخروج عن ربقة الايمان، فكان من البداهة أن يظهر تيار آخر على نقيض تيار اللذة المادية وطلب المتعة الجسدية والإقبال على الحياة، إنه تيار الزهد والابتعاد عن مباهج الحياة والدعوة إلى التحقير من شأنها والتفكير في الموت والنظر إلى الحساب والعقاب والعودة إلى ينابيع التُقى والايمان.

ومن العجب أن نرى أن الذين أقبلوا على الزهد وسعوا إليه وقالوا فيه شعرهم هم أنفسهم الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم إثماً ومعصية وانحرافاً، هم بعض أولئك الذين انغمسوا في طلب اللذة المحرمة حتى جرفهم تيارها وغمرهم عبابها.

وهكذا نجد في مقابلة اشتطاط بعض القوم نحو الانحراف وانتهابهم اللذات اتجاهاً مغايراً يهدم شعورهم باللذة وينذر بفناء الدنيا ويبشر بالآخرة، ويتخذ من الموت قارعاً ومنبهاً ومن الحشر والحساب والعقاب والثواب وسيلة لتنبيه الغافلين وتقريع اللاهين.

ز ـ ازدهار الشعر: كانت البادية في هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوي السليقة العربية السليمة. وكان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشأوا في البادية، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت في دخائلهم، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبياناً.

ويعود الفضل إلى علماء اللغة في تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعاً دقيقاً.

وكان من بين هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء بما وضعوا فكانوا القدوة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، حماد الراوية والخليل بن أحمد والخلف الأحمر والأصمعي. ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالألفاظ الوحشية الغريبة، ولم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلاَّ سجلوها ودوَّنوها وفسروها وشرحوها، يحدوهم إلى ذلك عاملان، عامل ديني حتى لا تستغلق دلالة القرآن والحديث النبوي على أفهام الناس، وعامل سياسي، فإن خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وحثوا العلماء على

مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار.

وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من أمثال الكسائي والأصمعي، فكان لا بد للشعراء من الحرص على أن ينالوا استحسانهم وأن يرى الخلفاء ذلك منهم فيجزلون لهم في العطاء. وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر في هذا العصر وحرَّاسه، وهم قضاته وصيارفته، وعل هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر في العصر العباسي، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعري القديم تمسكاً شديداً، وقد رأوا أن اشعار المحدثين مثل الرَّيحان يُشَمُّ يوماً ويَذْوَى فيرمى به، وأن اشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حرَّكته ازداد طيباً.

كان الشاعر العباسي يحوِّل إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل خصائصها وكل اشاراتها، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن اللغويين قد هيأوا للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم ما لم يتهيأ لأصحابه أنفسهم، فقد جمعوه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها فأخذت تورق وتزدهر من جديد، ومن هذا الازدهار نفذ العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرِف باسم أسلوب المولدين، وهو أسلوب قام على عِتَادٍ من القديم وعُدَّة من

الذوق الحضري الجديد، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية ويُلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنفى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنفى عنه ألفاظ البدو الوحشية. فقد تناول اللغة في الحاضرة صُنَّاع مهرة لم يلبثوا أن اشتقوا لهم منها أسلوباً متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكزَّة. وأشاعوا في أسلوبهم الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حيناً آخر، يهديهم في ذلك ذوقهم المتحضر الدَّمث الذي ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة.

وعلى هذا النحو دفع التحضر شعراء العصر العباسي إلى استحداث أسلوب مُولَّدٍ جديد، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال، تختار فيه الكلمات وكأنما هي جواهر تختار في عقود، وكل واحد من الشعراء يحاول أن يُثْبِت مهارته في صياغته وسبكه بما ينتخب من الكلمات التي يحسن وقعها في السمع والتي تصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة.

ح ـ **التطور العقلي**: رقيت الحياة العقلية في هذا العصر رقياً بعيداً، رقيّ هيأت له الكتب الكثيرة التي ترجمت عن الهنود

والفرس واليونان، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء، وهي مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء، كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل الذي لا يُثني عَزْمَ صاحبه عن المحاورة والمناظرة، متناولاً كل شيء حتى يصقُلَ عقله، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة. ولم يكن الشاعر العباسي يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه في السؤال فحسب، بل كان يلتمسها أيضاً في الكتب المترجمة من كل صنف، وكان تأثير الثقافة الفارسية في الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية، وقد نُقلت أمثال بزرجمهر الوزير والحكيم الفارسي إلى العربية ودارت في كتب الأدب، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة، ويقال إنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم. كما كان للثقافة اليونانية تأثيرها في الشعر والشعراء أعمق وأبعد غوراً، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفي وأبواب المنطق ومقاييسه وأدِلّته، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعاني واستخراج رقائقها. وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة، بل كان منهم من أَلَّفَ في المنطق حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله. وكان

مما تُرجم لهم من تلك الثقافة مراثي فلاسفة اليونان للإسكندر المقدوني عند وفاته، وقد نقل منها أبو العتاهية أطرافاً إلى مراثيه في صديقه علي بن ثابت. كما أن كثيراً من أقوال المسيح عليه السلام في الأناجيل نُقل إلى العربية وتداوله الوعاظ في وعظهم، كما تداوله شعراء الزهد، واستوحوه في كثير من أشعارهم.

ولعل أكبر بيئة عُنيت بهذه الثقافات المتنوعة، وكان لعنايتها بها أثر واسع في الشعر والشعراء، هي بيئة المعتزلة إذ كانت تقوم من الفكر مقام السكان[1] والمجداف من السفينة، فقد عملت على إثارته ودفعه إلى المزيد من التحصيل من جميع المعارف والمعتقدات التي كانت سائدة في ذلك العصر، وأن يتمثلها[2] إلى أبعد حد ممكن.

ط ـ **التجديد في الموضوعات القديمة**: ظل الشعراء العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المديح وغيره مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون، وبذلك أبقوا للشعر العربي شخصيته الموروثة، وراحوا يوافقون بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة، فإذا

---

(١) دفة السفينة التي بواسطتها تُقاد.

(٢) يستوعبها ويفهمها.

هي تتجدد من جميع وجوهها تجدداً لا يقوم على التفاضل بين هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة، بل يقوم على التواصل الوثيق فيما بينها.

معروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة، وبذلك ظلت المدحة تبث في الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة، وقد اضطرمت غايات المديح في العصر العباسي، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدأون في تصوير هذه المثل فيخرجونها صوراً حية ناطقة، ويكاد يعدو الحصر ما ابتدعوه من معانٍ طريفة في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة والشرف وعلو الهمة والشجاعة والبأس، وقد جسموها في الممدوح تجسيماً قوياً، حتى تصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويتخذوها رمزاً ومثالاً يحوزوا من خلالها لأنفسهم مجامع الحمد والثناء. وقد مضى الشعراء العباسيون في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحُكْم وما ينبغي أن يقوم عليه من التقيد بدستور الشريعة السمحة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها، وبذلك كانوا صوتاً مُدَوِّياً قوياً لم يتوانَ عن الهتاف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم تجاه

رعيتهم. وقد يكون الحاكم سيىء السلوك. ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو، وإنما يمدحونه كخليفة للمسلمين وموضع آمالهم، وكأنما أرادوا بذلك أن يرفعوا أمام عينيه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفتها وراعيها، لعله يثوب إلى طريق الرشاد، وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسي، الذي يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب في الحكم والخلافة، ولم يصور الشعراء العباسيون مثاليتنا الخلقية العامة في مدائحهم ومثاليتنا السياسية فحسب، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء، وبخاصة الفتن والثورات وحروب أعداء الدولة العباسية من روم وترك، وبذلك قامت قصيدة المديح في هذا العصر مقام الصحافة في زماننا هذا، فكانت سجلاً للأحداث التي عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية إلى جانب كونها قطعة أدبية.

وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ، وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو ناقة أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشي، وقد يعرض لوصف مشهد صيد، وكثيراً

ما كان يضمنها حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطرافٍ من سِنن الحياة. وكل هذه الأمور استبقاها الشاعر العباسي في مدحته مع إضافات كثيرة، حتى يلائم بينها وبين عصره. وقد تتسع الإضافة أحياناً وقد تضيق أحياناً، ولكنها كانت دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي.

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الاطلال المهجورة إلى القصور العامرة المأنوسة، كما تحول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة عن وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجة في فَصْلِ الربيع، واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها في الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير في الصحراء، وجعلتهم موجة المجون الحادة المتفشية في عصرهم يصفون في مقدمات مدائحهم الخمر أحياناً، وعنوا على نحو ما عني به الشاعر القديم ببثّ الحِكَمِ في قصائدهم، وكان قد ترجم الكثيرُ من الحكم الفارسية والهندية واليونانية، فأفادوا من ذلك كله ونثروه في تضاعيف مدائحهم، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم في الحياة والطباع.

وكذلك فعلوا بالهجاء فجاءت معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح، لأن فن الهجاء كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالاً أدق من اتصال المديح الذي كاد أن

يكون وقفاً على طبقة معينة لا يتعداها. وهذه الحياة الجديدة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض. ولكن إذا كان فن النقائض قد ضعف، فإن فن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عَمَّتْ فيه روح جديدة حتى ليخيل إلى الإنسان أن أصحاب هذا الفن لم يتركوا مثلبة[1] خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها، وكأنما كان هدفهم من ذلك أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء، وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوىء الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد.

وظلت للفخر حيويته القديمة، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلي على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء.

ونشط الشعراء في الرثاء نشاطاً واسعاً، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا أبَّنوه تأبيناً رائعاً. ومع أن رثاءهم لهم يفيض بالحزن واللوعة والأسى، إلا أنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد البطولة تمجيداً يضرم الحمية في

---

(١) عيباً.

نفوس الشباب للدفاع عن الحمى حتى الموت. وظهرت ضروب جديدة في الرثاء لم تكن معروفة من قبل، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق. ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثي الطير الصادح من مثل القُمْرِي والحيوانات المستأنسة والرياض والبساتين.

وقد أكثر الشعراء في هذا العصر من العتاب والاعتذار، متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهافة الحس وخصب الذهن.

ولعل الشاعر العباسي لم يُعْنَ بموضوع قديم كما عُنِيَ بموضوع الغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التي كانت تخفق بأغانيها العيدان والطنابير والدفوف والمعازف مُختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الايقاعات صباح مساء، كما شاع أيضاً الغزل الإباحي والغزل الماجن وبلغ من حِدتِهِ أن شاع الغزل الشاذ بالغلمان، على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به وهو شاعرنا العباس بن الأحنف.

كما انتشر في هذا العصر أيضاً شعر الزهد، وكان أكثر اتصالاً بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية

مستقيمة يشيع في بعض جوانبها النسك والعبادة، وقد أخذت تظهر تباشير التصوف.

ي-موضوعات جديدة: رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعاً في معانيها، فقد أخذت تُعْرَض بصورة أدق وأعمق، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة. ولم يقف الشاعر العباسي عند ذلك الحد فقد أخذ يُنمي بعض جوانب هذا الشعر حتى أخرج منه فروعاً جديدة كثيرة. وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة، فقد تناولوا هذه الشيم، وأخذوا يفردونها بمقطوعات أو قصائد، قطعة تصور الكرم، وقطعة تصور العلم، وقطعة تصور الحياء، وقطعة تصور العفة، وقطعة تصور الصبر والتنفير من اليأس. ووسعوا أيضاً معاني الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة، فتناولوها هي الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء. وقد وقفوا طويلاً عند واجبات الأخوة والصداقة واختيار الاخوان والأصدقاء وسبر أخلاقهم قبل اصطفائهم. وعدل الشاعر العباسي أحياناً عن وصف الاطلال إلى وصف القصور، وربما ترك اطلال نجد إلى اطلال بعض هذه القصور في الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة. وهذا الموضوع الجديد هو الذي ألهم البحتري فيما بعد سينيته المشهورة في وصف إيوان كسرى. وقد دفع الحنين الذي صحب وصف الاطلال

الشاعر العباسي في بعض مدائحه إلى بَثّ حنين مقابل. حنين لوطنه وبلده حين ينأى عنه ويشط به المزار وتظل روحه ملتصقة به، والجديد بالأمر انه أفرد لهذا الحنين خاصةً قطعاً بديعةً لا يتجاوزها إلى غيرها.

وكان الشاعر العباسي يحتفظ أحياناً في مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحياناً يتركها إلى وصف الطبيعة في الحاضرة ببساتينها ورياحينها، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة، بحيث جعل منه موضوعاً واسعاً جديداً، كما كان يمزج نشوته بالطبيعة في بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان، وفي كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها. وقد أكثروا من وصف الامطار والسحب، كما أكثروا من وصف الرياض خاصةً في الربيع، وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم خلال هذا الوصف، مما جعلهم يخاطبون عناصرها وكأنها بَشَرٌ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان.

ونرى شعراء كُثر يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف في الطعام والتأنق في الملبس، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجري فيها من الظباء والغزلان. كما أكثروا من وصف الحيوان

والطير والحشرات. وعلى هذا النحو تحول الشاعر العباسي من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها، وقد وصف وصفاً دقيقاً الامراض والآفات التي انتابته، كما ظهر في شعرهم الشكوى من الزمن ونوازله ومن الدهر وهمومه، وخاصة عندما ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصداء ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالي على أشعارهم؛ وتوسع الشعراء بمراثيهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن، ولعل منهم من كان يبكي في مقدمات مدائحه أحياناً الشباب في بيت أو أبيات قليلة. وسرعان ما استقلت القصائد بهذا الموضوع. ومما استحدثوه أيضاً من المراثي محللين مشاعرهم تحليلاً دقيقاً بكاؤهم نور البصر حين يخبو؛ ومن ذلك التعاطف الرقيق بين الأب وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان. وكذلك شعور الزوج بالغيرة الشديدة على زوجته وما يجر ذلك عليهما من البلاء. كما صوروا تصويراً دقيقاً حياة البؤس والمسغبة[1] التي كان يرزح تحت أثقالها جماهير الشعب.

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنوادر والفكاهات، مما هيأ ذلك لشيوع روح الدعابة والهزل في

---

(١) شدة الجوع.

بعض المقطوعات والقصائد. ولعلهم لم يكثروا من التندر على شيء كما أكثروا من التندير على اللِّحَى، وكان كثير من أهل الوقار يطيلونها ويُعرِّضونها، فتندَّر عليهم الشعراء طويلاً.

وفن الشعر التعليمي فن استحدثه الشعراء العباسيون، ولم تكن له أيُّ أصول قديمة، هذا الفن من الشعر الذي دفع إليه رقي الحياة العقلية في هذا العصر، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار.

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلي والفني للشاعر العباسي وكيف كان يحرص على التجديد، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده، ولا يكتفي بها، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمي، فسجل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة.

ك ـ التجديد في الأوزان والقوافي: أثَّر الغناء المستحدث في هذا العصر في موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظم المقطوعات القصيرة في الغزل وأخذ الشعراء يُصَفُّون

موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة. ومضى شعراء الغزل يَعْدلون في أغلب الأحيان عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم في الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن نظموا بالأوزان الطويلة جزّءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغني أو المغنية من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الزحافات إكثاراً نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصنع بعض مقطوعاته فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسي الأول بلغت في مدن العراق كلَّ ما كان يُنْتَظَرُ لها من حدة وقوة، فمن جهةٍ صُفِّيت لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا بالقصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمي ألا وهو شعر المدح والرثاء، بينما تشيع المقطّعات في الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون في الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفي وزن المجتث الذي استكشفه الوليد بن يزيد، كما كثرت المنظومات من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث.

ولم يلبث الشاعر العباسي أن حاول النفاذ إلى أوزان جديدة، وإذا به يكتشف وزنين هما المضارع والمقتضب، ومن الواضح أن المقتضب أكمل نغماً وإيقاعاً من المضارع، وهذا ما جعله يشيع ويتداوله الشعراء؛ واكتشف الشاعر العباسي أيضاً وزن المتدارك أو الخبب؛ والحق يُقال إن الخليل بن أحمد اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم وذلك أنه استضاء بفكرة التبادل والتوافق الرياضية في وضع عروض الشعر، إذ جعل أوزانه تدور في خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد، فإذا هو يحصي الأوزان التي استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها في أشعارهم، كي ينفذ منها الشاعر العباسي إلى ما يريد من تجديد في أوزان الشعر وبحوره. وينسب إلى هذا العصر أيضاً وزن شعبي هو وزن «المواليا» التي لم تبدأ أولاً عامية ملحونة، وإنما بدأت فصيحة، ثم تحولت إلى العامية.

وكما جدَّدوا في الأوزان جدَّدوا أيضاً في القوافي مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمَّطات، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن المزدوج هو الذي رشح لظهور الرباعيات في الأدبين العربي والفارسي؛ والمسمَّطات قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وهي قريبة

الشبه بالموشحات من حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال. هذه الموشحات التي شاعت في الأندلس فيما بعد على يد مقدم بن معافى القبري شاعر الأمير عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ) والتي سكب الوشاحون فيها من الأنغام ما يمتع الاسماع ويشرح الأفئدة.

ل ـ شعراء الغزل: كثر الغزل في هذا العصر كثرة مفرطة، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عنوا بالنظم فيه عنايةً أعدَّته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً، إذ تداوله أفذاذ الشعراء، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة، وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة.

وقد مضى الغزل يجري في نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بني أمية، ونقصد تيار الغزل الإباحي الصريح، والغزل العذري العفيف، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً؛ وحتى ان الغزل العذري في العصر العباسي الأول قد أخذ يضيق مجراه، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف في العصر الأموي، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن، فإذا هو يجري فيه التكلف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلا قليلاً.

على أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعاني في غزلهم، فقد كان عقلهم خصباً قادراً على تشعيب المعاني وتحليلها واستنباط الكثير من دقائقها. كما أن شعرهم يصور أيضاً حسهم المترف الدقيق وشعورهم المرهف الرقيق، وعباراتهم اللينة، ومرد كل ذلك إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجواري المغنيات المتحضرات، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذي يلمس القلوب لمساً بدون أيّ حاجزٍ أو حجاب، وإن كثيراً منهن كنَّ مثقفات يُحسنَّ صوغ الشعر ونظمه. وقد أشاع هؤلاء الجواري الشواعر كثيراً من الظرف والرقة في الغزل العباسي. كل ذلك عمل على ازدهار الغزل في هذا العصر ازدهاراً واسعاً لذا، فنحن نقف عند شاعر من شعرائه من أصحاب الغزل العفيف وهو العباس بن الأحنف.

العباس بن الأحنف . . . ـ ١٩٢ هـ

هويته: أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة. . . بن عبد الله بن حنيفة، بغدادي عربي من بني حنيفة، كان آباؤه ينزلون في خراسان، واتصلوا بالعباسيين، ولمع منهم عمه حاجب بن قدامة الذي كان من كبار رجال الدولة، نشأ العباس وتربى في بغداد، ويظهر أنه نشأ في نعمة وثراء، جعلاه ينصرف عن شعر المديح، الذي كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء. وقد أخذ يعيش حياة مترفة يختلط فيها بالشعراء، ولكن دون أن يتردَّى في خلاعتهم ومجونهم. وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دونما تعمق ودونما إثم.

صفاته وأخلاقه: «كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يُليق درهماً ولا يحبس ما يملك» هذا ما وصفه به ابن المُعتز. ويقولون إنه كان فيه ظرف. وكأنه كان مثال العربي البغدادي المهذب في عصره الذي أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثره في ذوقه المصفى المهذب وشعوره

الرقيق المرهف. وقد مضى ينفق حياته في التغني بعواطفه وحبه، وفي ذلك يقول أبو الفرج: «كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً. . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني، وقد قدَّمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب[١] في وصفه. وقال: رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه، وقال أيضاً: كان العباس من الظرفاء، ولم يكن من الخُلعاء، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد الترف، وذلك بَيِّن في شعره، وكان قصده الغزل وشغله النسيب، وكان حلواً مقبولاً غَزِلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده، ولم يكن هجاءً ولا مداحاً»، وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه، حتى أصبح من ندمائه، وحتى صحبه في غزواته بأرمينية وأذربيجان.

وكان كما قال بعض من وصفه: «كان أحسن خلق الله إذا حدث حديثاً، وأحسنهم إذ حُدث استماعاً، وأمسكهم عن ملاحاةٍ[٢] إذا خولف، وكان ملوكي المذهب[٣]، ظاهر

(١) أكثر عنه الكلام.

(٢) المجادلة الكلامية.

(٣) يحيى حياة الملوك.

النعمة[1]، حسن الهيئة، وكانت فيه آلاتُ الظرف، كان جميل الوجه، فاره المركب، نظيف الثوب، حسن الألفاظ، كثير النوادر، رطيب الحديث، باقياً على الشراب، كثير المساعدة، شديد الاحتمال، ولم يكن هجاءً ولا مداحاً، كان يتنزه عن ذلك، ويُشَبَّه من المتقدمين بعمر بن أبي ربيعة».

وسُئل أبو نواس عن العباس وقد ضمهما مجلس فقال: «هو أرق من الوهم، وأحسن من الفهم». وجاء في كتاب: «وفيات الأعيان لصاحبه ابن خلكان قوله: «أبو الفضل العباس بن الأحنف الشاعر المشهور، كان رقيق الحاشية، لطيف الطباع، جميع شعره في الغزل، لا يوجد في ديوانه مديح، ومن رقيق شعره قوله من جملة قصيدة:

يا أيها الرجلُ المعذِّب نفسه
أقصر[2] فإن شفاءَكَ الاقصارُ

نَزَفَ البكاءُ دموعَ عينك فاستعر
عيناً يُعِيْنُكَ دَمْعُها المدرارُ

مَنْ ذا يُعيركَ عينه تَبْكي بها
أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

---

(١) صاحب مال وفير.

(٢) قصر عن الأمر: عجز وكف عنه.

وإن المتتبع للعباس في ديوانه لا تكاد تقع عيناه إلا على الغزل الرقيق الذي تتنازعه مدرسة جميل بثينة حيناً[1]، ومدرسة عمر بن أبي ربيعة حيناً آخر[2]، وإن لم تجرِ على لسانه عبارات الفُجر وألفاظ الفُحش التي كانت تجري على لسان عمر، ولعل العباس قد صدق في وصف نفسه حين قال:

أتـأذَنُـونَ لِـصَـبٍّ فـي زِيَـارَتِـكُـمْ
فَعِنْـدكُـمْ شَهَـوَاتُ الـسَّمْـعِ والـبَصَـرِ
لا يُضْمِـرُ السُـوْءَ إنْ طَـالَ الجُلوسُ بـه
عَـفُّ الضَـميـرِ وَلَـكِـنْ فـاسِـقُ الـنَـظَرِ

وهو معنى جديد على الشعر، غريب على الشعراء بحيث علق عليه الأصمعي قائلاً: ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئاً حتى أدخلها فأخرج هذا ـ أي هذا القول ـ وكان العباس بشمائله ورقة شعره وجُـوْدِةِ وبسطة يده[3] محبوباً من مختلف طبقات مجتمعه ابتداءً من الرشيد وانتهاءً بجمهرة العامة.

---

(١) شاعر المدرسة العذرية العفيفة.

(٢) شاعر المدرسة الاباحية.

(٣) أي كَرَمَهُ.

ولعل أحداً من الناس لم يحمل له موجدة[1] إلا مسلم بن الوليد الشاعر الكبير، وليس هناك من سبب ظاهر حمل مسلماً على معاداة العباس ثم هجائه إلاَّ ان العباس كان أثيراً[2] لدى الخليفة وكان في نفس الوقت مترفعاً عن مديحه، بينما كان مسلم يقف على بابه يسكب في مديحه أرق الشعر وأعذبه ثم لا يظفر ببعض مكانة العباس، وربما كان ترف العباس وانتماؤه إلى طبقة اجتماعية أغنى من طبقة مسلم السبب في حملة مسلم عليه وهجائه إياه. ولكن العباس ترفع عن هجاء مسلم أو الرد عليه لا قصوراً منه وهرباً، وإنما انسجاماً مع مبدئه فقد أخذ على نفسه عهداً ألاَّ يقول شعراً إلا غناءً يردد به ما يخالج فؤاده من حب، وما يشغل وجدانه من عشق.

---

(١) حقداً وضغينة.

(٢) مفضلاً.

أخباره

العباس في مجلس الفضل بن الربيع: دخل الأصمعي يوماً على الفضل بن الربيع والعباس بن الأحنف بين يديه؛ فقال العباس للفضل: دعني أعابث الأصمعيَّ. قال: لا تفعل فليس المزاحُ من شأنه. قال الأصمعي: إنْ رأى الأمير أن يفعل. قال: ذاك إليك. قال الأصمعي: فلما دخلت قال لي العباس: يا أبا سعيد من الذي يقول:

إذا أَحْبَبْتَ أن تَصْـ... ـنَـعَ شيئـاً يُعْجِب النَّـاسـا
فَـصَـوِّرْ هَـهُـنـا فـوزاً وَصَـوِّرْ ثَـمَّ عَـبَّـاسـا
فَـإنْ لَـمْ يـدْنُـوَا حتَّـى تَـرَى رَأسَيْهِـمَـا راسـا
فَكَـذِّبْهـا بـمـا قَـاسَتْ وَكَـذِّبْـهُ بـمـا قـاسـا

فقال ابن أبي العلاء الشاعر للأصمعي: إنه أراد العبثَ بك وهو نَبَطي، فأجِبْهُ على هذا. فأجابه الأصمعي على الفور: لا أعرف من قال هذا ولكني أعرف الذي يقول:

إذا أَحْـبَـبْـتَ أن تُـبـصِـرَ شَـيْـئـاً يُـعْـجِـبُ الـخَـلْـقَـا
فَـصَـوِّرْ هَـهُـنَـا زوراً وَصَـوِّرْ هَـهُـنَـا فَـلْـقَـا
فَـإنْ لَـمْ يَـدْنُـوا حَـتَّـى تَـرَى خَلْقَيْهِمَـا خَـلْـقَـا
فَكَـذِّبْـهـا بِمَـا لاَقـتْ وَكَـذِّبْـهُ بـمـا يَـلْـقَـا

فعرَّض بالعباس أنه نبطي. فضحك الفضل، ووجم العباس، فقال له الفضل: قد كنتُ نهيتك عنه فلم تقبل.

العباس وهارون الرشيد: كان هارون الرشيد يهوى جاريته ماردة[1] هوىً شديداً، فتغاضبا مرةً ودام بينهما الغضب، فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئاً فعمل:

راجع أَحِبَّتَكَ الذين هَجَرْتَهُمْ
إذِ المُتَيَّمُ قَلَّما يُتَجَنَّبُ
إن التَجَانُبَ إن تطاولَ مِنْكُمَا
دب السلوَّ له فَعَزَّ المطلبُ

وأمر ابراهيم الموصلي فغنى بهما، فلما سمعه الرشيد بادر إلى ماردة فترضاها، فسألت عن السبب في ذلك فقيل لها، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم بعشرة آلاف درهم وأمرت الرشيد أن يكافئهما، فأمر لهما بأربعين ألف درهم.

وقيل إن العباس أنشد الرشيد يوماً قوله:

طاف الهوى في عباد الله كلهمُ
حتى إذا قرَّ بي من دُونِهم وقفا

---

(١) وهي أمُ ولده المعتصم، فارسية الأصل.

فقال له الرشيد: ما الذي رأى فيك حتى وقف عليك؟ قال: سألني عن جود أمير المؤمنين فأخبرته، فاستحسن الرشيد جوابه ووصله[1].

وقيل إن الرشيد امتنع عليه النوم ذات ليلة فعمل في الليل بيتاً من الشعر، ورام[2] أن يشفعه بآخر، فامتنع القولُ عليه، فقال: عليَّ بالعباس، فلما طُرِقَ عليه ذُعِرَ وَفَزِعَ أهله، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: وجهتُ إليك بسبب بيتٍ قُلْتُهُ، ورمت أن أشفعهُ بمثله، فامتنع القولُ عليَّ، فقال: يا أمير المؤمنين، دعني حتى ترجع إليَّ نفسي[3] فإني تركتُ عيالي على حال من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحد والوصف، فانتظر الرشيد هنيهة ثم أنشده:

جنانٌ قد رأيناها ولم نرَ مثلها بشرا

فقال العباس:

يزيدُكَ وجهُهَا حسناً إذا ما زدتَهُ نظرا

فقال الرشيد زدني، فقال:

إذا ما الليلُ سال عليك بالاظلام واعتكرا

---

(١) كافأه.

(٢) أحب.

(٣) كناية عن شدة الخوف.

وَدَجٌّ[1] فلم ترَ قمراً فابرزها ترى قمرا

فقال له الرشيدُ: قد ذعرناك[2]، وأفزعنا عيالك، وأقل الواجب أن نعطيك هديتك، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

إسحاق الموصلي ينصح الفضل بن الربيع باستعمال قول ابن الأحنف: حكى إسحاق بن ابراهيم الموصلي قال: غضب الفضل بن الربيع[3] على جارية له، وكانت أحب الناس إليه وتأخرت عن استرضائه فغمَّه[4] ذلك، فوجَّه إلى أبي يعلمه بالأمر ويشكو إليه. فكتب إليه أبي: لك العِزُ والشرفُ ولأعدائك الذُل والرَّغم؛ استعمل قول ابن الأحنف:

تحمَّل عَظِيمَ الذَنْبِ ممن تُحِبُّهُ
وإن كنتَ مظلوماً فقل أنا ظالمُ
فإنك إلا تَغْفِرَ الذَنْبَ في الهوى
يُفَارِقْكَ من تهوى وأنفك راغمُ

كيف آثره المأمون على غيره: وحكى عمر بن شبة قال: مات ابراهيم الموصلي المعروف بالنديم سنة ثمان وثمانين ومائة ١٨٨ هـ، ومات في ذلك اليوم الكسائي النحوي

(١) أظلم.
(٢) أخفناك.
(٣) وهو وزير الرشيد.
(٤) أحزنه.

المعروف، والعباس بن الأحنف، وهشيمة الخمّارة، فَرُفِعَ ذلك إلى الرشيد، فأمر المأمون أن يصلي عليهم فخرج فصفوا بين يديه فقال: من هذا الأول؟ فقالـوا: ابراهيم الموصلي، فقال: أخروه وقدموا العباس بن الأحنف، فَقُدِمَ فصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي، كيف آثرتَ العباس بن الأحنف بالتقدمة على من حضر؟ فأنشد المأمون:

وسعى بها ناسٌ فقالوا: إنها
لهي التي تشقى بها وتكابدُ[1]
فجحدتهم[2] ليكون غيرك ظنهم
إني ليعجبني المحبُ الجاحِدُ

ثم قال: أتحفظهما؟ فقلتُ: نعم وأنشدته، فقال المأمون: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟ فقلتُ: بلى والله يا سيدي.

العباس شاعر الحب والغزل: يعتبر العباس بن الأحنف شخصية فريدة بين شعراء عصره، ذلك أن طبيعة العصر قد جرفت الشعراء في تيارها العنيف المصطرع الأمواج،

---

(١) تقاسي.
(٢) انكرتهم.

فتعددت لذلك جوانب القول وتشعبت ميادين الشعر عند الشاعر الواحد، من مديح وهجاء ورثاء وخمر وطبيعة، ومن قول الغزل في المرأة والغلام على حد سواء، إلاَّ العباس بن الأحنف فإنه قد صد عن هذه الفنون جميعاً وترفع عنها وعاش للحب والغزل ليس إلاَّ.

من الغريب حقاً أن يوجد شاعر كبير في مثل ذلك العصر ولا يتعدى بشعره حدود المرأة والطبيعة. فالأصفهاني يقول عنه إنه شاعر ظريف غزل مطبوع، له مذهب حسن ولمعانيه عذوبة ورونق، لم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء، وهذا هو رأي جمهرة الذين ترجموا للعباس، إلا ان الخطيب البغدادي يقول عنه: إنه لم يقل في المديح والهجاء إلا شيئاً نزراً.

وإن المتتبع للعباس في ديوانه لا تكاد تقع عيناه إلا على الغزل الرقيق الذي تتنازعه مدرسة جميل حيناً ومدرسة عمر بن أبي ربيعة حيناً آخر، وإن لم تجرِ على لسانه عبارات الفجور وألفاظ الفحش التي كانت تجري على لسان عمر كما أسلفنا.

إذن تفرد العباس بن الأحنف بين شعراء عصره في وقف شعره على الغزل دون سواه من فنون الشعر، ويمكننا القول إنه هو نفسه كان يعمد إلى اتخاذ ذلك مسلكاً، والتزامه

منهجاً، غير مبال بأولئك الذين اتهموه بقصر الباع في الشعر لأنه لم يعدد القول في فنونه المختلفة حيث يقول:

لَحَوْنِي في القَريضِ فَقُلْتُ أَلْهُو
وما مِنّي الهجاءُ ولا المديْحُ

صَاحِبَاتِه: أما صاحباته اللاتي قال فيهن شعراً فهن من الكثرة بمكان، حتى إذا ألقينا نظرة على ديوانه استطعنا أن نعرف منهن: نسرين، ونرجس، وذلفاء، وضياء، وسَحَراً، وخُنُث، ولكن أشهر صاحباته على الاطلاق اللتان استأثرتا بالقدر الأكبر والأرق من شعره فهما «فوز» و«ظلوم» ولسوف نقصر الحديث عليهما. رغم أن عاطفة الشاعر ربما توزعت في كثير من الأحيان على أكثر من واحدة. بل ربما كان قلبه يتوزع أحياناً بين ثلاثة في آن معاً حيث يقول:

إِنِّي وَدَّعْتُ قلباً طائِعاً
بَيْنَ «سِحْرٍ» و«ضِيَاءٍ» و«خُنُثْ»
يَتَنَازَعْنَ الهَوَى عنْ ذي هوىً
آمِنَاتٍ عَهْدَهُ لا يَنْتَكِثْ
وإذا «سِحْرٌ» أتت زائِرةً
كَشَفَتْ رُؤْيَةُ «سِحْرٍ» كُلَّ بَثّ
وا بنفسي مِنْ حبيبٍ زائرٍ
غيرِ مَمْلُولٍ على طُولِ اللَّبَثْ

لقد قصر العباس فنه على الحب والعشق صداً ووصلاً، وحنيناً وأنيناً، ولوعةً وشكوى، ومكاتبة ولقاء، ووصفاً للحبيبة وولهاً بها، وفرحاً بلقائها وبكاءً على فراقها، وألماً لرحيلها. وصف الشوق وطول الليل وامتناع النوم وطول الهجر، وغاص إلى أعماق نفوس العاشقين والمحبين، وجاء بالصور الشعرية العديدة الغنية في مواقف العشق بحيث لم يكد يصل إلى معانيه شاعر آخر من شعراء الحب والجمال في أدبنا العربي ثراء ووفرة وتنوعاً وكثرة.

العباس وفوز: ذهب الظن ببعض الدارسين إلى أن العباس لم يكن له غير صاحبة واحدة ذكرها في شعره بأسماء مختلفة. غير أن دارسين آخرين قالوا بتعدد المعشوقات اللاتي سلف ذكرهن، وإنما أصروا على أن «فوزاً» هي نفسها ظلوم، ولعلهم استأنسوا في رأيهم هذا بالظروف المتشابهة والملابسات المتقاربة التي عاشتها كل من «فوز» و«ظلوم» فكل منهما عاشت في بغداد، وكل منها وطئت قدماها أرض الحجاز، هذا فضلاً عن الشحنات العاطفية المتقاربة التي تضمنها شعر العباس في كل من المعشوقتين الفاتنتين.

بل يقال إن العباس لم يكن يجرؤ على ذكر اسم معشوقته الحقيقي والتي قال فيها ما يقرب من نصف شعره ألا وهي من

دعاها «فوزاً»، وإنما هو اسم اختاره على سبيل التعمية، واخترعه على سبيل التفاؤل، لأنها تنتمي إلى قوم يخشى بأسهم فيما لو صرَّح وأبان، وهو يصرح بذلك في مواطن كثيرة من شعره لعل أعمقها أثراً في النفس والقلب والوجدان هو هذا القول الموسوم بالعذرية، المتلفع بالتوسل، المشحون بالشكوى والضراعة:

كتمتُ اسْمَهَا كتمان مَنْ صان عِرْضَهُ
وحاذَرَ أن يَغْشُو قبيحَ التَّسَمُّعِ
فسمَّيْتُها «فوزاً» ولو بُحْتُ باسْمِها
لسمَّيْتُ باسم هائلِ الذكرِ أشنَعِ
فواحَسْرَتي إن نُحْتُ لم تُقضَ نهمتي
ولم يُغْنِ عنّي طولُ هذا التَّضَرُّعِ
وهبتُ لها نَفْسِي فَضَنَّتْ بِوَصْلِها
فيا لَكِ مِنْ مُعْطٍ ومِنْ مُتمنِّعِ
إليكِ ـ بنفسي أنتِ ـ أَشكُو بَلِيَّتي
وقد ذُقتُ طعمَ الموتِ لولا تَشَجُّعِي
هبي لي دَمي لا تَقْتُليني بلا دَم
فما يَسْتَحِلُّ القتلَ أهلُ التَّوَرُّعِ

وتعلق العباس بن الأحنف بفوز كان من الصبابة والعشق بحيث ملك عليه مجامع قلبه، فهو يترجح بين اليأس

والرجاء، والسخط والرضى، والقنوط والأمل، وإنه في كل خطرة نفس وخفقة قلب ينزع إلى الشعر يفضي إليه بذات نفسه، ويشكو إليه استحالة وصله، وقد امتدت أسباب الصدود، وانقطعت حبال الرجاء، فيعمد إلى هذا القول الرقيق معنى ومبنى وقافية وإيقاعاً:

إن تكوني مَلِلتِ يا «فوزُ» وَصلي
وَتَناسَيْتِني وعهدكِ أمْسِ
فعليك السلامُ خَارَ لكِ اللَّـ
ـهُ لعمري لأكْفِيَنَّكِ نفسي
سَوْفَ يا «فوزُ» تَنْدَمينَ إذا جَرَّ
بْتِ غيري والدهرُ يُسْلِي ويُنسي

وشأن ابن الأحنف شأن كل العاشقين في كل زمان ومكان فهو يعزو هجر حبيبته إلى قول عَزولٍ أو وشاية حاسد، فيبعث إليها بهذه الأنشودة الرائعة مدافعاً فيها عن حبه، مترجماً عن وجده، متضرعاً إليها ألا تأخذه بريبة قبل تَبَيُّنِ أسباب الحقيقة، وها هو يسطر أبياتاً من شعر العذريين الذي ندر وجوده في ذلك العصر:

وإن كُنْتِ قد بُلِّغتِ يا «فوزُ» باطلاً
تُقُوِّلَ عَنِّي فاسمعي ثم عَاتبي

ولا تعجلي بالصَّرْمِ[1] حتى تَبَيَّني
أَقَوْلَ مُحِقٍّ كان أم قَوْلَ كاذبِ

... أُريدُ لأدعو غيرها فيجرني
لساني إليها باسمِهَا كالمُغالِبِ

يَظَلُّ لِسَاني يشتكي الشوق والهوى
وقلبي كذي حبسٍ لقتلٍ مُرَاقبِ

كأن بقلبي كُلَّما هاج شوقُهُ
حَرَارَاتِ أقباسٍ تلُوحُ لراهبِ

ولو كان قلبي يستطيعُ تَكَلُّماً
لحدَّثْتُكُمْ عَنِّي بِكُلِّ العَجائِبِ

كتبتُ فأكثرتُ الكتابَ إليكُمُ
على رَغْبَةٍ حَتَّى لقد مَلَّ كاتبي

أما تتقينَ الله في قتلِ عاشقٍ
صريعٍ نحيلِ الجسمِ كالخيطِ ذائبِ

ولكن الحب ليس صداً وحرماناً كله، ولا وصالاً جُله، وإنما هو لقاء وجفاء، وصل وحرمان، رضى وسخط، مودة وخصام، هكذا الحب إنه متقلب تقلب عاطفة المحبين، لا يثبت على حال. وربما فترة انفتاح ووصال تمر بالعاشق،

---

(١) بالقطيعة.

فيكاد شاعرنا يطير فرحاً بجناحيه، وها هو يستبد به الغرور فيُظهر نفسه معشوقاً أكثر منه عاشقاً، ويصور شخصه مطلوباً أكثر مما هو طالب، وتستبد به النشوة فيقول هذه الأبيات التي وإن كانت عابثة في موازين العشق إلا أنها نفيسة في معايير الفن رقيقة ناعمة في حلبة الشعر:

اليومَ طابَ الهَوَى يا مَعْشَرَ الناسِ
وأُلْبِسَتْ «فوزُ» حُبِّي كُلَّ إلبَاسِ

مَا أنْسَ لا أنْسَ يُمنَاهَا مُعَطَّفَةً
على فُؤادي وَيُسْرَاهَا على راسي

قالتْ وإنسانُ[1] ماءِ العينِ في لُجَجٍ[2]
يكادُ يَنْطِقُ عَنْ كَرْبٍ وَوِسْوَاسِ

يَطْفُو وَيَرْسُو غَرِيقاً ما تُكَفكِفُهُ
كَفٌّ فيا لَكَ من طافٍ ومن رَاسِ

«عباسُ» لَيْتَكَ سِرْبَالي على جَسَدِي
أو لَيْتَني كُنْتُ سِرْبَالاً «لعباسِ»

أو لَيْتَهُ كانَ لي راحاً وكنتُ لَه
مِنْ ماءِ مُزْنٍ فَكُنَّا الدَّهْرَ في كاسِ

(١) حدقة العين.

(٢) جمع لُجة وهي الماء الكثير.

أو لَيْتَنَا طَائِرا إلفِ بِمَهْمَهَةٍ[1]
نَخْلُو جَمِيعاً ولا نَأْوِي إلى النَّاسِ

وينتشي الشاعر وتأخذه مسحة من غرور بأدبه وشعره، أو لمحة من فخر بحسبه ووسامته فيستطرد قائلاً:

كَمْ من كواعبَ ما أَبْصَرْنَ خَطَّ يَدِي
إلَّا تَشَهَّيْنَ أن يأْكُلْنَ قِرطاسِي
لو كنتُ بَعْضَ نَبَاتِ الأَرض مِنْ طَرَبي
لِلَّهوِ مَا كُنْتُ إلَّا زَهْرَةَ الآسِ

ولكن هذه النفحة السعيدة لا تستمر طويلاً عند شاعرنا، بل ان صروف الزمان وتغير الحدثان تكتب على العاشقين فراقاً مريراً، طوله ما بين أرض العراق وأرض الحجاز من مسافة أو بالأحرى ما بين بغداد والمدينة، فإن فوزاً كانت حجازية النسب، مدنية المولد، سكن أهلها العراق لفترة من الزمن، وكان مستقرهم بغداد حيث التقى بها العباس وعلق قلبه حبها.

أما وإنه لا بد للغريب أن يعود، وللمسافر أن يؤوب، فقد عادت فوزُ مع أهلها من حيث أتت، وربما زوجوها الى الحجاز. وهنا يستبد اليأس بالشاعر العاشق، وتعتلج في

(١) المفازة البعيدة والبلد المقفر.

صـدره آلام العشق والحنين، وتلح على نفسه الشاعـرة المرهفة لواعج الحب والأسى، ينظر حوله فيرى أن فوزاً وقد أضحت في أرض غير أرضه، وقطْرٍ غير قطره، فيعلو صوته، وتتردد أنفاسه، ويتصاعد أنينه، ولا يلبث أن يرسل شكواه بهذه المناجاة التي لا تخلو على ما فيها من لوعة وحرقة من كبرياء حين يجعل من نفسه معشوقاً بقدر ما هو عاشق في سياق هذه المعاني العذرية التي يَبثُها.

خَـبِّـرُونِـي عَـنِ الـحـجـازِ فـإنِّـي
لا أَرَانـي أَمَـلُّ ذِكْـرَ الـحِـجَـازِ

إنَّ فـي بعضِ مـا هـنـاك لَشَـخْـصـاً
كـان يَشْـفِـي الـمـوعـودَ بـالإنـجـازِ

تـلـك فـوزٌ فـقـبـح الله شـيـخـاً
- حـال بـيـنـي وبـيـنـهـا - بـالـمخَـازي

وتَـمَـنَّـتْ لـقـايَ فـوزٌ ودونـي
فـلـواتٌ تـحـار فـيـهـا الـجَـوَازِي[1]

جَـمَـعَ الله بـيـنَ فـوزٍ وعـبَّـا
سٍ فـعـاشـا فـي غِـبْـطَـةٍ واعـتِـزَازِ

ويفيض بـالعباس شـوقه، وتنضج على حرارة العشق صبابته، ويزداد إلى موطن أحبته حنينه، وينظر إلى أمسه

---

(١) الإبل السريعة العدو.

حيث كان الشمل ملتئماً في بغداد، ويتفكر في يومه فإذا الجمع منشعب، واللقاء عصي، فيقول:

أَصْبَحَ القلبُ بالعِراقِ وأَمْسَى
بالحجازِ الهوى فكيفَ النَّعِيمُ
خَنْدَقَتْ حَوْلَ قلبهِ بالصَّبابا
تِ فما حَوْلَهُ حمىء مكلُومُ
إن فيما بين البقيعِ وبُطْحَا
نَ لَداراً فيها الهوى مَكْتُومُ

ولا يطيق العباس بعد ذلك صبراً، ولا يجد بدّاً من أن يرتحل إلى الحجاز علَّهُ يلتقي بفوز، ويفكر بالأمر فلا يجد أنسب من الخروج في موسم الحجيج، فيشد الرحال، ويكون اللقاء والحوار والتشاكي والسلوى، ويفضي كلٌ الى صاحبه بمكنون نفسه، ويثمر اللقاء بين العاشقين هذه الأبيات التي بدت روح جميل بن معمر في ثنايا كثير من أبياتها، لا بل تجاوز ذلك الى عباراتها، وحوار عمر بن أبي ربيعة في بنائها ونهجها، إلا أنها مفعمة بأسباب الطهر، بعيدة عن معاني العهر الذي عُرِفَ به عُمر، بل إنها اشتملت على صنوف من فلسفة العشق، وحوت قوافل من معاني الحب وأنّات الصبابة والغرام:

أزارَ أبـا الـفضـلِ الـخيـالُ الـمؤرِقُ
لـفـوزٍ؟ نَعَـمْ، والـطيفُ مِـمَـا يُشَـوِّقُ
تـنـامُ عيـون الـكـاشحيـن[1] قَـرِيـرَةً
وعَـيْنِي بـأَصْنَـافِ الـبُكَـاءِ تُـؤَرِّقُ[2]
فـيـا عـجبـاً لـلعيـنِ! أمـا رُقَـادُهـا
فَـعَـانٍ وأمَّـا الـدمـعُ منهـا فمُـطْلَقُ
ومـا النـاسُ إلاَّ العـاشقـون ذَوُو الهـوى
ولا خَـيْـرَ فِـيمَـنْ لا يُـحِـبُّ وَيَـعْـشَـقُ
عَـجِبْتُ لفـوزٍ خَـوَّفتني بِـبَـيْـنِهـا[3]
وقـد عَـلِمتْ أنَّـي من الـبَيْـنِ مشـفِـقُ
لقـد سَعِـدَ الـحُجَّـاجُ إذ كُـنتِ فـيهـمُ
وحُـقَّ لـهـمْ أن يَـسْـعُـدوا وَيُـوَفَّـقُـوا
إذا لـمتُـهـا قـالـتْ: وَعَـيْشِـكَ إنَّـنـا
حِـراصٌ وَلَـكِنَّـا نَـخَـافُ ونُـشـفِـقُ
وإن كـنتَ مـشتـاقـاً إلـى أنْ تَـزُورنَـا
فـنحـنُ إلى مـا قُـلْتَ مِـنْ ذاك أشْـوَقُ
فمـا أنسَ مِ الأشيـاءِ لا أنْسَ قَـولَهـا
ألا آخْـرُجْ بِـلاَ زادٍ فـإنَّـكَ مُـوبِقُ[4]

(١) العوازل. (٢) لا تنام. (٣) بفراقها.
(٤) هالك.

وقـد نَـذَرَتْ إنْ سَـلَّمَ اللهُ نَفْسَهَـا
ونَفْسِي لَهَـا شَهْـراً تَصُـومُ وتعتِقُ
فلمَّـا خَـرَجْنَـا اسْتَعْبَـرَتْ وتنفَّسَتْ
وَبَـادَرَهَـا دمـعُ الـهـوى يَـتَـرقْـرَقُ

ويحاول العباس أن يطيل المكث على مقربة من ديار معشوقته يستمتع بأنغام المغنين في المدينـة ويستمع الى ألحان العازفين في منتدياتها، ولكن روعة الألحان التي أغرق العباس نفسه في غمارها والاستماع إليها لم تكن لتسري عنه وتخفف من لوعته وأشجانه، وإنما راحت تثير لديه لواعج الشوق والأسى وتلهب عنده كوامن الصبابة والوجد، فظل يغني وينشد نشيد الطائر العاشق الحزين الغريب، يناجي فوزاً حيناً، ويتضرع الى أهلها أحياناً، يتشهى راحة النفس والفؤاد لديهم، ويتمنى الموتَ والثواء في ديارهم قريباً ممن يحب، وها هو يصور حشود أحاسيسه في هذه الأبيات الرقيقة الحزينة:

بكيتُ من طـرب عنـد السَّمـاعِ كمـا
يَبْكِي أَخُـو غُصَصٍ مِنْ حُسْنِ تـذكيـرِ
وصـاحب العِشقِ يَبْكِي عِنْـدَ سَكْـرَتِـهِ
إذا تـجـاوبَ صـوتُ البَمِّ والـزِّيـرِ(١)

(١) آلتان موسيقيتان.

يا فوزُ يَفْدِيكِ خلقُ اللهِ كُلُّهُمُ
طوعاً وكُرْهاً على صُغْرٍ وتَصْغيرِ
يا فوزُ لولاكِ لم أَنْفَكَّ مِنْ طربٍ
آوي إلى آنِساتٍ كالدُّمَى حُورِ
يا فوزُ أهْلُكِ لاموني فقلتُ لهم
أُدوا فؤادي أَدَعْكُمْ غَيْرَ مزجورِ
يا أَهلَ فوزٍ أما لي عندكم فَرَجٌ؟
وَيْلي! ولا راحةٌ من طول تعزِيري
يا أَهلَ فوزٍ ادفِنُوني بين دُورِكُمُ
نفسي الفداءُ لتلكَ الدورِ من دُورِ

نعم لقد أحب العباس فوزاً حباً ملك عليه نفسه وكيانه، حباً يَسِيرُ به في مسلك العذريين من المحبين قولاً ومعنى ورقةً وإحساساً وإبداعاً، بحيث لو كنا لا نعرف أن للعباس صاحبات أخريات لما جال بخاطرنا إلاَّ أنه واحد من رواد الموحدين في محراب الحب، وناسك من نسَّاكه.

العباس وظلوم: وظلوم هي المرأة الثانية بعد فوزٍ التي أوحت إلى العباس بن الأحنف الشطر الثاني من شعره العذري، هذا الشعر الذي حلق غريباً بعذريته في سماء العباسية المادية، والحق يُقال إن أمر هذا الرجل غريب بين

العاشقين، فلقد تغنى بشعره في أكثر من واحدة، وعشق أكثر من حسناء، وهو الذي يكاد يبدو أمام قارئه وكأنه لم يعشق غير واحدة، ولم يحب غير مرة لا ثانية لها، محلقاً بهذا الحب كله في سماء من الطهر والعفة وآفاق من العذرية قلما حلق فيها شاعر عباسي.

إننا فعلاً أمام ظاهرة فنية فريدة تتمثل في شاعر يحب أكثر من واحدة، ومع ذلك فهو يقول في كل معشوقة من معشوقاته الكثيرات أبياتاً من الشعر العف الرقيق مما لو وزع على العاشقين أجمعين لوسعهم إفصاحاً وتعبيراً.

وها هو العباس يترجم عن حبه لظلوم بأبياتٍ عذبة المأخذ رقيقة الإيقاع، كلها إعجاب وافتنان واكبار، يصفها من خلالها بالطهر والحسن والعفة والنقاء، ويضعها في مقام من الجلال لا يتسامى إليه مقام غيرها من بنات جنسها، وذلك في قوله:

نظرُ العيونِ الى ظلومَ نعيمُ
إن السرورَ يُقيمُ حيثُ تُقِيمُ

وأرى النساءَ يَلُمنني في أمرها
أبغِضْ إليَّ بِمَنْ أراهُ يَلومُ

ما قَوَّمَتْكِ ملوكُ أرضٍ قيمةً
إلا ارْتَفَعْتِ وقَصَّرَ التَّقْوِيمُ

وجـهٌ يَـكِـلُّ الـطرفُ عـنـه إذا بـدا

هـو بـالـعفـافِ وبـالـتُّقـى مَـوْسُـومُ

يَـحْسِـدْنَ وَجْـهَـكِ يـا ظـلومُ إذا بـدا

هيهـاتَ! مَـا لَـكِ في الجمـالِ قَسِيمُ

وغَـبَـطْتُ نَـفْـسِـي إذ رَأَيْـتُـكِ مـرةً

مـن لا يَـرَاكِ فـإنَّـهُ مَـحْـرُومُ

ولا يلبث هذا الاعجاب والاكبار، أن يتحول الى عشق، وينتقل حب العباس بذلك الى مرحلة الإفصاح بعد الكتمان. وها هو يترجم عما يحسُّ من جوى، ويعبر عما يكابد من لوعة، فقد حاول الوصول الى مبتغاه بواسطة الكتابة، ولكن الكتابة إليها أخفقت في بلوغ مراده، وعجزت الرسائل عن تيسير اللقاء. يقول العباس يصف هذه المرحلة من حبه:

ظـلومُ هِبِـي لي سُـوءَ ظَـنِّـكِ واعْلَمِـي

بـأَنَّ الـذي بي مِنـكِ عَنْهُـنَّ شَـاغِـلُ

متى - ليت شِعـري - نلتقي؟ وإلى متى

تُـؤَدِّي رسـالاتـي إلـيـك الأنـامِـلُ؟

وأسكُتُ كي يَخفَى الـذي بي من الهوى

فتشكـو الى النـاسِ العِـظامُ النَّـواحِـلُ

وأَكْـتُمُ جَـهْـدِي مـا أُجِنُّ مـن الهـوى

فَتَنْشُـرُ مـا أُخْفِي الـدمـوعُ الهَـوَامِـلُ

وكما رحلت فوزُ من قبل الى الحجاز، فإن ظلوماً لا تلبث أن تذهب هي الأُخرى للحج. وإن عباساً يرى في أداء ظلوم فريضة الحج بشرى للمناسك والشعائر، وهذا دليلُ على أن ما يكابده الشاعر هو أكثر من عشق بل هو فتنة، وأسمى من حب بل هو فناء في صاحبته، فيقول:

بَشِّرْ مِنىً بظلومٍ أن تَحِلَّ بها
وبشر البَيْتَ والأركان والحَرَمَا
لينزِلَنَّ بِهَا طِيبٌ تَطيبُ بها
تِلْكَ البقَاعُ ونُورٌ يَكْشِفُ الظُّلَمَا

ويستبد بالعباس عشق صاحبته ظلوم، ويبليه ويشقيه، فيتصور أن وجده بها قاتل له، وان لوعته بحبها مودية به الى الهلاك، فيقول شاكياً متوجعاً، باسطاً أكف التوسل إليها، ضارعاً إلى الله أن ينصره عليها:

أظلومُ حانَ الى القبورِ ذَهابي
وَبَلِيتُ قبلَ الموتِ في أثْوابي
جَرَّعْتِنِي غُصَصَ المنِيَّةِ بالهوَى
أفما ـ بِعَيْشِكِ ـ تَرْحَمِينَ شبابي؟
سُبْحَانَ مَنْ لَوْ شاءَ سَوَّى بَيْنَنَا
وأَدَالَ مِنْكِ، لَقَدْ أَطَلْتِ عَذَابِي

العبّاس والمرأة: عاش العباس بن الأحنف في العصر العبّاسي، وهو عصر اشتهر بـه الشعراء بـالغزل المـادي الحسي، بل هو أكثر من ذلك، هو عصر الشذوذ والغزل بالغلمان، وكنا نتوقع من العباس غزلًا مادياً أسوةً بغيره من الشعراء، أو في أحسن الأحوال مزيجاً من الغزل المادي والعذري، ولكن شاعرنا بشفافيته وريادته للعشاق من شعراء عصره يضع المرأة في مكان رفيع غير متهافت ولا ممتهن حين يصفها، ونكاد نجمع ملامح مذهب العباس في وصف المرأة من خلال شعره في كل من فوزٍ وظلوم وهما أشهر من شبب بهما ووقع في حبائل عشقهما.

إن المرأة التي هي «فوز» هي عنده الشمس رفعةً وسموًّا وإشراقاً، وهي أسمى من أن تكون من الإنس، وأرفع من أن تكون من الجن حيث يقول فيها:

إنـي طَـرِبْـتُ إلـى شـمسٍ إذا طَـلَـعَـتْ
كـانتْ مَشَـارِقُهَـا جَـوْفَ المَـقَـاصِيـرِ
شـمسٌ مـمـثلةٌ فـي خَـلْقِ جـارِيـةٍ
كـأنمـا كَشْحُهَـا[1] طَيُّ الـطَّواميـرِ[2]

---

(١) ما بين الخاصرة والضلوع.

(٢) ج طامور وطومار وهو الصحيفة.

لَيْسَتْ من الإنْسِ إلا في مُنَاسَبَةٍ
ولا مِنَ الجِنِّ إلاَّ في التصاويرِ

فالجسمُ من لُؤْلُؤٍ والشَّعْرُ من ظُلَمٍ
والنشرُ[1] من مِسْكَةٍ والوَجْهُ مِنْ نُورِ

إنَّ الجَمَالَ حَبَا فوزاً بِخِلْعَتِهِ
حَذواً بحذوٍ وأصفاها بتحويرِ

كأنها حينَ تَمْشِي في وَصَائِفِها
تخطُو على البَيْضِ أو خُضْرِ القواريرِ

إن فوزاً معشوقة ساحرة الجمال بارعة الحسن في نظر العباس، تمشي مترينة متمهلة بعنجٍ ودلالٍ كأنها تخطو على البيضِ أو خُضْرِ الجِرارِ، وإذا كان القمر هو الآخر قد عمد بعض الشعراء الى تشبيه الحسناوات به، فإن شاعرنا يشبه فوزاً به، ولكن بطريقة ذكية غير مباشرة، وهي عنده حورية من سكان الفردوس، فإذا كانت من حسناوات الدنيا فهي فريدة في حسنها بين البشر، والصورة في مجملها تضفي على المرأة احتراماً وتمجيداً وإجلالاً.

يا مَنْ يُسَائِلُ عن فوزٍ وصُورَتِها
إنْ كنتَ لم تَرَها فانظر الى القَمَرِ

---

(١) الرائحة.

كَــأَنَّمــا كــان في الفِــرْدَوسِ مَسكَنُهــا
صــارت الى النــاس لــلآيــات والعِبَــرِ
لم يَخْلُقِ الله في الــدنيــا لهــا شَبَهــاً
إنِّــي لأحسَبُهــا لــيســت مِـنَ الـبَشَــرِ

ولقد يعمد في بعض الأحيان الى التركيز على محاسن المرأة من خلال تركيزه على محاسن فوز، افتتاناً منه بجمالها وإعجاباً بسحرها، فأجمل ما خلق الله المرأةَ الجميلةَ، ولكن شاعرنا قد يغالي ويبالغ في قوله:

يــا فــوزُ مــا ضَــرَّ مَنْ أمسى وأَنتِ لــه
أَلَّا يــفــوزَ بــدنــيــا آل عَــبَّــاسِ
أو يَـقْسِــمُ الله جــزءاً من مـحــاسِنِهــا
في النــاسِ طُرًّا لَتَمَّ الحُسْنُ في النــاسِ
أبصــرتُ شيبــاً بِمَــولاهَــا فــواعجبــاً
لمن يــراهــا ويَبــدُو الشَّيبُ في الــراسِ
ولــو رآهــا نــبِــيٌّ فــي رِسَــالَــتِــهِ
أَحَسَّ مــن قَـلْبِــهِ فــيـهــا بِــوِسْــواسِ

وإذا عمد العباس الى وصف ظلوم فإنه يَرُقُّ ويبدع ويمتع، كما هو شأنه مع فوز، ويأتي بالصور البارعة البعيدة عن المعاني المادية المبتذلة، كما يعمد الى الصيغ الحضرية

في وصف المرأة من حيث البحر الشعري القصير، والأوصاف الحضرية شأن الشعراء العباسيين، واستجلاب الأساليب البغدادية في التصوير والتعبير، ولكن في غير إسفاف أو تهافت أو ترخص على الرغم مما في مسلكه من سهولة، غير أنها سهولة ممتنعة حيث يقول:

ظلومٌ قد رأيناها فلم نَرَ مِثْلَهَا بشَرا
كَأَنَّ ثِيَابهَا أُطْلَعْـ ـنَ مِنْ أَزْرَارِهَا قَمَرَا
يَزِيدُكَ وَجْهُهَا حُسْناً إذا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا
بِعَيْنٍ خَالَطَ التَفْتِيـ ـرُ في أَجْفَانِها الحَوَرا
وَوَجْهٍ سَابِرِيٍّ[1] لو تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قطرَا
إذا ما الليلُ سَالَ عليـ ـكَ بالظَلْماءِ واعتكرا
وَرَاحَ ولَمْ يكنْ قَمَرُ فابرِزها تكنْ قمرَا

كما لا يفوت العباس أن يصف حُسن المرأة وجمالها وهي تشترك في جنازة. ويبدو أن وصف النساء في الجنازات والمآتم كان مما يستهوي خيال الشعراء، وهو أمر وإن بدا قبيحاً لدى جمهرة الناس، فهو شيء محبب عند الشعراء الذين يثيرهم كل منظر غير أليفٍ. ومن ثم فإن العباس بن

(١) السابري الثوب الرقيق الجيد، ومن الدروع ما كان دقيق النسج في إحكام.

الأحنف يعمد الى نفس الوصف الذي عمد اليه أبو نواس في نفس الفترة الزمنية:

يـا زيـنَ مَنْ رأت الـعـيـونُ إذا بـدت
وَسْطَ الـنِّـسَـاءِ وَلَـفَّـهُـنَّ الـمـجـمـعُ
الـحـسـنُ مِـنـكِ سَـجِـيَّـةٌ مـطـبـوعـةٌ
ومـن الـنـسـاءِ تَـخَـلُّقٌ وَتَـصَـنُّـعُ
يَـوْمَ الـجَـنَـازَةِ لـو شَـهِـدْتُ تَمَتَّعَتْ
عَـيْـنِـي بـهـا وَلَـقَـلَّمَـا تَـتَـمَـتَّـعُ
خـرَجَـتْ ولـم أشـعُـرْ بِـذَاكَ فـلـيْـتَـنِـي
كـنـتُ الـجـنـازةَ وهـي فـيـمـن يَـتْـبَـعُ

فالعباس يركز على حسن صاحبته الذي هو سجية وطبع فيها إذا ما قورن حسنها بحسن النساء في مجمع حزين.

ومجمل القول ان العباس بن الأحنف كرَّمَ المرأة واحتفى بها ووضعها في مكانة عالية حين أحبها ووصفها. إنه لم يمتهنها ولم يجعل منها هدفاً للترفيه أو مقصداً للشهوة، ولم يبخل عليها بهذا التكريم حتى وهي في مقام المعشوقة المطلوبة، كما أن وصفه تميز بالتصرف الواسع، والذوق الرفيع، والصور المتعددة المتلاحقة والمعاني المتناسبة المتجانسة وإن اختلفت أساليب التعبير وتباينت وسائط التفكير.

إن العباس بن الأحنف يعتبر بين شعراء العباسية لا بل بين شعراء العربية شاعر المرأة الذي أكثر القول في وصفها وتكريمها والشغف بها دون النيل منها أو امتهان مكانتها، بل كانت دائماً عنده في أنصع صورة وأرفع وأعز مكانة.

الغزل بالرسائل والكتب: ظاهرة جديدة في الشعر العربي، هذا اللون من الغزل الذي كانت الرسائل والكتب تلعب فيه دوراً بين العاشقين، إنها ظاهرة حضارية مبتدعة، وهي صدى للعصر الذي كانت المرأة فيه تجيد القراءة والكتابة. أما وإن العباس بن الأحنف سلطان العاشقين في العصر العباسي بحيث قصر شعره على الحب ووقفه على الغزل، فقد بات من الوضوح بمكان شيوع هذه الظاهرة في شعره، فما أكثر ما ضمن وجده صفحة رسالة يبعث بها الى من أحب، وما أوفر ما عبر عن وجيب قلبه عبر كتاب دس به الى من اذاقه حرارة الحب ولوعة الحرمان.

وقد أحسن العباس التصرف وأكثر التنويع في وصف الرسائل، وهذه الرسائل ربما كانت صادرة عنه أو تصدر اليه، فهي في أحيان كثيرة متبادلة بين العاشقين، وهو من خلال ذلك يصف حبه ووجده، بل يصف الرسالة نفسها خطاً وإملاءً وأناملاً، وهو يسعد بها كل السعادة اذا حملت إليه موعداً، ويشقى بها إذا تضمنت هجراً وبلَّغت صدًّا، وهي مجال

للشكوى، ووسيلة للمناجاة، ووشيجة للتعاطف، وميدان للعتاب.

وها هو العباس يصف ما فعل به العشق وما جنى عليه الحب في رسالة بعث بها الى من أحب، من عين لا ترقأ لها دمعة، وجسم ناحل شحوب، وقلب لا يقبل النُصح، وسمع مستعصٍ على الانصياع الى صوت الناصحين. إن العباس يسوق قوله في عفوية وصدق، وفي غير ما تعسف أو تصنع أو افتعال، بحيث يُعَدُ قوله شعراً عند الأدباء، وأنينا وتوجعاً عند العشاق، وتمرداً وخروجاً على المألوف عند الحكماء، وها نحن نستعرض رسالة العباس لنرى ما جاء فيها حيث يقول:

كتب المحبُّ الى الحبيبِ رسالةً
والعينُ منهُ ما تَجِفُّ مِنَ البُكَا
والجسمُ منه قدْ أَضَرَّ به البِلَى
والقلبُ منه ما يُطَاوِعُ مَنْ نَهَى
قد صار مثلَ الخَيْطِ مِنْ ذكْراكُمُ
والسمعُ منه ليس يَسْمَعُ من دَعَا
هذا كتابٌ نحوكم أرْسَلْتُهُ
يَبْكي السميعُ له ويَبْكي مَنْ قَرَا
فيه العجائبُ مِنْ مُحِبٍّ عاشقٍ
أطفاهُ حُبُّكِ يا حَبِيَبةُ فانطفا

وينطلق الشاعر من الحديث عن وجده، الى تصنيف نفسه في سلك مشاهير العاشقين العذريين أمثال جميل وعروة والمرقش. ولكنه لا يأت على ذكر غير العذريين أمثال عمر بن أبي ربيعة وغيره، حيث يمضي قائلاً:

ما إن صَبَا مِثْلي جميل فاعلمي
حقاً ولا المقتول عروة إذ صَبَا

لا لا ولا مثلي المرقش إذ هوى
أسماءَ للحيْنِ المحتَّمِ والقَضَا

رُدِّي جِوابَ رسالتي واسْتَيْقِني
أَنَّ الرسالةَ منكُمُ عِندِي شِفا

ويتحدث العباس عن كتاب وفد عليه من صاحبته فيقول:

كتابٌ أتانا على نَأْيِها[1]
يُخَبِّرُ عن بَعْضِ أنبائها

فَنَفْسِي الفداءُ لهذا الكتا
بِ إن كانَ خُطَّ بإمْلائِها

ثم لا يلبث العباس وقد تلقى كتاباً آخر من محبوبته أن يعمد الى شيء من الإطناب في إظهار إعجابه بالكتاب وصاحبة الكتاب، ويفصل القول حياله، ذلك أنه كتاب من

(١) بُعْدَها.

ظلوم. إنه يصف كيف استقبله، وكيف فضه، وكيف قرأه، ثم يعبر بعد ذلك عن كوامن نفسه وعاطفته إزاء محتواه فيقول:

بعثت إليَّ صحيفةً مختومةً
نفسي الفداءُ لِخَطِّها والكاتِبِ
فَفَكَكْتُها فقرأتُ ما قد حَبَّرتْ
فإذا مقالةُ مستزيرٍ عَاتِبِ
في الودِّ تزعمُ أَنني ذو مَلَّةٍ
خُنْتُ العهود فَدَيْتُها من كاذِبِ
أَنَّى أخُونُكِ يا ظلومُ وَحُبُّكم
مني بحيثُ جَرَى شَرابُ الشَّارِبِ

وكثيراً ما كان يكتب العباس الى صاحبته فلا يتلقى ردّاً سريعاً، فيستبد به القلق، وتسرح به الظنون، ويتطرق الى قلبه اليأس، وقد غاب عن ذهنه أن المحب محاط بالرقباء مستهدف بالملاحظة، حتى إذا تسلم بعد حينٍ ردَّ كتابه فاضت شاعريته فصور أحاسيسه وهواجسه، كما تجري على لسان معشوقته أسباب تأخر ردها عليه، وفي هذا يقول العباس:

كتبتُ إلى ظلومَ فلم تُجِبْنِي
وقالتْ مَا لَهُ عِنْدِي جوابُ

فلمَّا اسْتَيأَسَتْ نفسي أَتَاني
- وقد غَفَلَ الوشاةُ - لها كتابُ
وفيه الوصلُ يُشرِقُ جَانِبَاهُ
وقد رَقَّ التَّأوُّلُ والخطابُ
كَتَبْتَ إليَّ والرقباءُ حَوْلي
إذا ما مَرَّ طيرٌ بي اسْتَرَابوا
أَما تَعْلَمْ يقيناً أن أَهلي
عليَّ لهم عيونٌ وارْتِقابُ

وقد يعمد العباس إلى أسلوبين من أساليب التعبير في رسائله، أسلوب المرأة وهي تعتب، وأسلوب العاشق وهو يدافع عن نفسه فيدفع أسباب الاتهام فيقول:

يا أَبا الفَضْلِ يا كَرِيمَ التَّصَافي
مَا لِفَوْزٍ تقولُ إنَّكَ جَافِ
كَتَبَتْ في الكتابِ فوزٌ فقالتْ
في عتابٍ منها وفي إلطافِ
ما مَلِلْنَاكَ إذْ مَلَلْتَ ولَكِنْ
أَنْتَ يا حِبُّ صاحبُ اسْتِظْرَافِ
وكَذَاكَ المَلُولُ من سائرِ النا
سِ سريعُ الإقبالِ والانْصِرَافِ

فــوزُ مَــا مَــلَلْتُ واللهِ ولا كُــنْــ
ــتُ لقــومٍ ســواكُمُ بِــالــمُصَــافــي
أيُّــهــا الــراقِــدون حــولــي هَــنِــيئــاً
إنَّ جَــنْبِــي عن مَضْجَــعِــي مُتَجَــافــي

إن من ينظر في ديوان العباس بن الأحنف يجده مترعاً بالعديد من هذه النماذج التي قيلت حول الكتب والرسائل، مسجلاً بذلك ظاهرة جديدة في عالم العشق، مبتدعاً أسلوباً مستحدثاً في نطاق الغزل الحضاري الذي يتم بالمكاتبة ويكتمل بالمراسلة، ولا أعتقد أن هناك شاعراً عاشقاً غير العباس بن الأحنف قد قال في هذا النطاق ما قاله العباس من حيث وفرة الشعر، وتعدد المعاني، وكثرة المواقف، ورقة المأخذ، وتنوع الحوار. وبذلك يكون العباس قد سجل سابقة فنية اختص بها دون غيره من شعراء عصره وأدباء زمانه.

الشكوى والتوجع في شعر العباس: يُعَدُّ العباس بن الأحنف سلطان المحبين في عصره وزمانه دون منازع، وبالتالي فهو زعيم الشعراء العاشقين، وإنه لأمر طبيعي أن يتشكى المحبون، وأن يتوجع العاشقون، وخاصة إذا كان العاشق منهم مثل العباس صادق الود ملتهب الحب رقيق اللفظ مهتاج العاطفة والمزاج مرهف الإحساس، أما وإن كل

شعره في الغزل، فإننا لا شك ننتظر منه صوراً عديدة من القول في الشكوى والتوجع، ومعانٍ مرهفة في التعبير عن لوعته وحرقته، حيث يقول:

يـا ويـحَ مَـنْ عَلِقَ الأحِـبَـةَ قـلْبُـهُ
حـتـى إذا ظَـفِـرُوا بـه قـتـلُوهُ
عَـزُّوا ومَـالَ بـه الـهـوى فَـأَذَلَّـهُ
إنَّ الـعـزيـزَ عـلى الـذَلـيـلِ يَـتـيـهُ
انـظرْ إلـى جسـدٍ أَضَـرَّ بـه الـهـوى
لـولا تـقـلُّبُ طَـرْفِـهِ دَفَـنُـوهُ
مَنْ كـان خِلواً مِنْ تبـاريـحِ الـهـوى
فـأنَـا الـهـوى وحَـلِيـفُـهُ وأَبُـوهُ

يعمد العباس الى المداراة والمراوغة ليخفي اسمَ وشخصيةَ من يحب حفاظاً عليها وعلى سمعتها من أن تُدنس أو تُهان أو أن يشتهر أمره وأمرها، وهكذا يضع العباس نفسه وقلبه بين نارين، نار الشكوى واللوعة والتوجع، ونار الضن بالبوح والتزام الكتمان، فيقول:

إنـي وضـعـتُ الـحُـبَّ مـوضـعَـهُ
واحـتـلْتُ حـيـلةَ صـاحـبِ الـدُنْـيَـا
وإذا سُـئِـلتُ عـن الـتـي شَـغَـفَـتْ
قـلبـي وكـلْتُـهُـمُ إلـى أُخـرَى

مـــا زِلـت أكــذبــهــم وأكْــتُـمُــهُــمْ

حــتـى شُـهِــرتُ بـغـيــرِ مـن أهــوَى

وعض العباس العاشق الموله سادراً في توجعه وفي شكواه، مُلِحّاً على إظهار لوعته وضناه، ملتزماً النهج الذي سار عليه، محافظاً على العهد الذي قطعه على نفسه ألاّ يبوح باسم صاحبته، أو أن يذكر حتى قرينة تنم عن شخصيتها، فيأتي بهذا الدُرِّ الذي سداه الشكوى ولحمته الحفاظ على الوفاء، ملؤه الموسيقى مترعة والإيقاع أخاذاً:

أبكي إلى الشَّـرْقِ إنْ كـانَتْ منـازلُـهُم

مما يلي الغربَ خَوْفَ القِيلِ والقَالِ

أقُـولُ بـالـخـدِّ خـالٌ حِيْـنَ أنْعَـتُـهـا

خـوفَ الـوُشَـاةِ ومـا بـالخَـدِّ من خَـالِ

يـا أغْفَـلَ النـاسِ عَمَّـا بِي وأعْلَمَهُـم

بـمـا يُـدَاوَى بِـهِ حُـزْنـي وَبَـلْبَـالـي

لَسْنَـا وإنْ كُـنتَ تَـجفُـونـا وَتَـقْـطَعُنَـا

بتَـارِكِيـكَ عـلى حـالٍ مـن الـحـالِ

ويعزف العباس على قيثارة العذرية في توجعه وشكواه، يعمق ويرق، يشف ويلتاع، ولكنه عمق الأيجاع، ورقة الصبابة والجوى، وشفافية الطهر والعفاف، والتياع العاشقين

المتيمين، يلعب بعواطف الناس، ويحرك أشجان الخليين حتى ليكادوا يستعذبون الألم في سبيل الحب، يفلسف الشكوى، محتفظاً بصمته، ملتزماً بكتمانه، مستلذاً بحرمانه وهو يقول:

خـليـليَّ مـا لـلعـاشـقيـن قـلوب
ولا لـلعـيـونِ الـنـاظـراتِ ذنـوبُ
ويـا مَعْشَرَ العُشَّـاقِ ما أَوْجَـعَ الهـوى
إذا كـان لا يَـلْقَى الـمُحِبَّ حـبـيـبُ
أمـوتُ لِحَيْني[1] والـهـوى لي مـطاوعٌ
كـذاكَ مَـنَـايـا الـعـاشـقيـن ضُـرُوبُ
عَـدِمْتُ فؤادِي كيف عَـذَّبَـهُ الـهـوى
أَمَـا لـفُـؤَادي مِـنْ هَـوَاهُ نَـصِـيـبُ؟

ويفيض بالشاعر العاشق الوجدُ، ويؤرقه البعد والهجر، ويقضي مضجعه الحرمان، فهو وحده المحروم، وكل العاشقين قد استمتعوا بالوصل ونعموا باللقاء من دونه، إن الشاعر هنا يعاني من الصراع النفسي وشكوى الوشاة مع محاولة يائسة إلى إقناع نفسه بالسُلوِّ والنسيان حيث لا سبيل إلى سلوٍّ أو نسيان فيقول:

---

(١) لتوي ـ الآن.

أَرى كـلَّ مَعْشُـوقَينِ غَيْـرِي وَغَيْـرَهَـا
قـد اسْتَعْـذَبـا طَعْمَ الـهـوَى وَتَمَـتَّعَـا
وإنِّـي وإيَّـاهـا، عـلى غَـيْـرِ رِقْـبَـةٍ[1]
وتفـريقِ شَـمـلٍ، لَمْ نـبِتْ لـيلةً مـعـاً
وقـد عَصَفَتْ ريـحُ الـوشـاةِ بِـوَصْلِنَـا
وجَـرَّتْ عـليـهِ ذَيْـلَهَـا فَـتَـقَـطَّعَـا
وإنِّـي لأَنْهَـى النَّفْسَ عنـهـا ولم تـكُـنْ
بِـشيءٍ من الـدنْيـا سِـوَاهَـا لِتَقْـنَعَـا

ظل العباس يشارك الناس بالسخرية من العاشق الذي يُحِبُ من طرف واحد، دون أن يبادله المعشوقُ حُبَهُ، حتى ابتلي بحب من لا يحبه، والمفروض أن مثل هؤلاء العشاق الغافلين يكونون عرضة للتندر ومثاراً للسخرية حيث يقول:

مَـا زلـتُ أَسْخَـرُ مِـمَّـنْ　　يُـحِـبُّ مَـنْ لا يُـحِـبُّـهْ
حتَّى ابـتُـلِيـتُ بـمـن لا　　يُـحِـبُّـنـي وَأُحِـبُّـهْ
يَهْـوى بِعَـادي وهَجـرِي　　ومُنْيَـتِي الـدَّهـر قُـرْبُـهْ
فَـليـتَ قَـلبِي لَـهُ كـا　　نَ مِـثْـلَ مَـا لـي قَـلْبُـهْ

---

(١) تحفظ وفزع.

ويرحل العباس العاشق المحب في إثر معشوقته، فلا ينال قرباً ولا يصيب وصالاً، وهنا يشعر بالغصة والمرارة، غصة الهجر ومرارة الاغتراب، فيبعث الشكوى يوجهها الى هاجرته مباشرةً بهذا القول الساحر الحزين:

لا تَجْمَعِي هجراً عليَّ وغربةً
فالهجرُ في تَلَفِ الغريبِ سَرِيعُ
من ذا - فَدَيْتُكِ - يستطيعُ لحبِّهِ
كَتْماً إذا اشْتَمَلَتْ عليهِ ضُلُوعُ

ويعود العباس الى نفسه يشكو ويبكي ويغني ويمنطق القول ويفلسف العشق ويرسل التشبيه البليغ حين جعل من نفسه ذبالة[1] تضيء للناس وهي تحترق. إن أبيات العباس جمعت من المعاني ما لم يجمعه قول عاشق من قبل: عشق وحرمان وتقريع ومنطق وواقعية في نطاق المعنى، وبيان وبديع في نطاق الأسلوب حيث يقول:

إنكِ لا تعرفينَ ما الهمُّ
والغمُّ ولا تعلمينَ ما الأَرَقُ
أَنَا الذي لا تنامُ عَيْنَايَ ولا
تَرْقَا[2] دُمُوعِي مَا دَامَ بِي رَمَقُ

---

(١) شمعة.

(٢) تجف - تنقطع.

أُحْـرَمُ مـنـكـمُ بـمـا أَقُـولُ وقـد
نَـالَ بـهِ الـعـاشِـقُـونَ مَنْ عَشِـقُـوا
صِـرْتُ كـأنّـي ذُبـالـةٌ نُـصِـبَـتْ
تُـضِـيءُ لـلـنـاسِ وَهْـي تَـحْـتَـرِقُ

إن الذي نريد أن نقرره في شأن العباس حين يشكو أنه استحدث أساليب متعددة في شكوى المحبين، جمعت بين العمق والتنوع، كما جمعت بين عذرية البداوة ورقة أساليب الحضارة، وهو ما لم يجتمع لشاعر آخر غير العباس بن الأحنف.

العباس وفنون الشعر

وحتى تكـون الصورة واضحـة تمامـاً حول تفـرد العباس بن الأحنف بين شعراء عصره في وقف شعره على الغزل دون غيره من فنون الشعر، وأنه هو نفسه كان يعمـد إلى اتخاذ ذلـك مسلكاً، والتزامه منهجاً، غير مبالٍ بأولئك الذين اتهموه بقصر البـاع في الشعر لأنه لم يعدد القول في فنونه المختلفة فقال:

لَـحَــوْني فـي القَــرِيضِ فـقـلتُ أَلْـهُــو
وَمَــا مــنّـي الــهــجــاءُ ولا الــمــدِيــحُ

إلاّ أنه من الملاحظ أن هناك مواقف قليلة خرج فيها العباس عن النهج الذي التزمه، ففي ميدان المديح مثلاً لم يمدح أحداً سوى الرشيد ووزيره، فقد اصطحب الخليفة معه العباس في رحلة إلى خراسان، فكانت هذه مناسبة قال فيها الشاعر أربعة أبيات مدح فيها الخليفة ووزيره ببيت واحد، واشتكى الهجر والجوى في ثلاثة أبيات وذلك في قوله:

أســأَلُ الله خــيــرَ هــذا الــمــسِــيــرِ
وإيــابــاً[1] فــي غــبــطةٍ وسُــرُورِ

(١) عَوْدَة.

أنـا فـي عـسـكـرٍ لـخـيـرِ أنـامٍ
زَانَــهُ رَبُّــهُ بِــخَـيْـرِ وزيـرِ
غـيـر أنِّي نَـغَّـصْـتُ مَـا أنـا فِـيـهِ
بِـمُـتَـاحٍ مِـن الـهـوَى مـقـدُورِ
وبِـهَـجْـرٍ مِـن الـحـبـيـبِ فـلا تَـسْـ
ـألْ بـأحـوالِ عـاشـقٍ مَـهْـجُـورِ

وهو كما ترى مديح ركيك، ربما كان الامتناع عنه خيراً من الاقدام عليه، ذلك أن الرجلَ لم يكن مداحاً، وإنما كان غزلاً شكاءً.

وحتى الرثاء الذي يكون القول فيه ضرورة تحتمها على الشعراء طبيعة حياتهم وصلاتهم بالرؤساء والأعيان، لم يشارك فيه العباس أيضاً إلَّا مرةً واحدةً حين رثى «ضياء» جارية الرشيد، بل إنه لم يرسل الرثاء فيها بشكل مباشر، وإنما أطلقه على لسان الرشيد نفسه حيث يقول:

ألَا إنَّ صَفـوَ العَيْشِ بَعْـدَكِ أكْـدَرُ[1]
وَكُـلُّ نَـعيمٍ سـوف يُقْـلَى[2] وَيُهْـجَـرُ

(١) فهو غير صافٍ.
(٢) يُكره ـ ويبغض.

لَعَمْـرِي لَنِعْمَ المُسْتَغَـاثُ بِـهِ البُكَـا
إذا فَنِيَ الـصَّبْـرُ الـذي كـانَ يُـذْخَـرُ

سَـأَبْكِي «ضيـاءً» مُسْتَقِـلاً لهـا البُكـا
ويُسْعِدُني[1] «يَحْيَى» و«فَضْلُ» و «جَعْفَـرُ»

ولعلنا نلاحظ أنه رثاء هزيل، أقل ما يُقال عنه أنه عزاء بغير روح، وإن الرجلَ لم يكن يجيد الرثاء.

وأمّا الهجاء فلم نقرأ للعباس غير بيتين اثنين قالهما في أبي الهذيل العلاف رأس المعتزلة في زمانه، ذلك أن أبا الهذيل كان قد قرأ قصيدة العباس التي مطلعها:

عَيْنَـايَ شَـامَتْ[2] دَمِي والشُّؤْمُ في النَّـظَرِ
بُـعْـداً لِعَيْنٍ تَـبِيـعُ النَّـوْمَ بـالسَّـهَـرِ

وفيها يقول:

فَـأَكْـثِـروا أو أَقِلُّوا مِـنْ إسـاءَتِـكُـمْ
فَـكُـلُّ ذَلِـكَ مَـحـمـولٌ على الـقَـدَرِ

إذا أَرَدْتُ سُـلُوًّا كـانَ نَـاصِـرُكُـم
قـلبي ومـا أَنَـا مـن قَلْبِـي بِـمُـنْـتَـصِـرِ

---

(١) يُعِينُني ـ يساعدني.
(٢) تطَلّع إليه مترقباً.

فكان أبو الهذيل يبغض الشاعر ويلعنه ويقول عنه: إنه يعقد الكفر والفجور في شعره، وكان من الطبيعي أن يغضب الشاعر لنفسه، فهو لم يكن كافراً ولا فاجراً إلّا في نظر أبي الهذيل، فأنشأ بهذه المناسبة بيتين ثأرَ فيهما لنفسه وسخر من أبي الهذيل وجماعته ومعتقداتهم عامة ومن القضاء والقدر خاصة قائلاً:

يا مَنْ يُكَذِّبُ أخْبَارَ الرسُولِ لقد
اخطأْتَ في كُلِّ ما تأْتي وما تَذَرُ[1]
كَذَّبتَ بالقَدَرِ الجاري عَلَيْكَ فَقَدْ
أَتَاكَ مِنِّي بِمَا لا تَشْتَهِي القَدَرُ

وبهذه المناسبة وجب علينا أن نُنَوه أن العباس بن الأحنف ذكر في شعره مرةً واحدةً معنى اجتماعياً إنسانياً يمسُّ أوتار القلوب ويهزها بقوةٍ وعنفٍ حين وصف إنساناً فقيراً ورثى لحاله ولمكانه في المجتمع وصور مشاعر الناس نحوه وحتى الكلاب كيف تتصرف حين تراه قائلاً:

يَمْشِي الفقيرُ وَكُلُّ شيءٍ ضِدُّهُ
والناسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أبوابَهَا
وَتَراهُ مبغُوضاً وليسَ بِمُذْنِبٍ
وَيَرى العَدَاوَةَ لا يَرَى أَسْبَابَهَا

(١) تَذَعُ ـ تترك.

حتى الكِلاَبُ إذا رأَتْ ذَا ثَرْوَةٍ
خَضَعَتْ لَدَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا
وإذا رأتْ يوماً فقيراً عَابراً
نَبَحَتْ عَلَيْهِ وكَشَّرَتْ أَنْيَابَهَا

إن هذه الأبيات من أعمق وأمتع ما قيل في القيم الإنسانية والمعاني الاجتماعية في الشعر العربي، وكم كنا نتمنى لو أن ابن الأحنف أكثر من القول فيها، إذن لأمتع قراء الأدب العربي بأدب نفيس وبشعر إنساني ثمين.

تلك هي الأبيات القليلة التي قالها العباس بن الأحنف في غير الحب والغزل، وفيما عدا ذلك فهو الوحيد بين الشعراء الذي كرس شاعريته للحب غناء وشكوى وتوجعاً، ومناجاة وحنيناً، وسهراً وأنيناً، يبتدع الصور العذبة، ويأتي بالمعاني المستحدثة.

صور العشق عند العباس

لعل شاعراً من الشعراء العشاق لم يوهب القدرة على تصوير العشق وآلامه وتباريحه وأصدائه كما وهب العباس بن الأحنف.

لقد أغنى العباس الشعر بصور من العشق لم يسبقه إليها شاعر آخر. إن العباس يؤثر صحبه على نفسه ويصف الهجر فيبكي، ويذكر القرب فيطرب، ويصور القرب والهجر في وقت واحد معاً، وهو يحلل نفسية العاشقين، ويتحدث عن لغة العيون، ويصف رسل الحب ورسائله، ويغار من الرسالة والرسول، ويتصدى للزيارة وما يلابسها من سرية وتخف ووشاية، ويفلسف تردد العاشقين على من يعشقون، ويجعل للحب باباً لا يدخله إلاّ جَسُورٌ، ويلتذ بعذاب الحب ويستمسك به، كما يرجو من الله أن يموت على دين الحب حتى يصير أحدوثة للزمان ورائداً للعشاق، وهو يجري حديثاً جدلياً بين القلب والعين لكي يظهر أيًّا منهما يتحمل وزر عذابه ووجده وألمه، ويحاول أن يسن تشريعاً خاصاً بإباحة العشق حتى في أيام الحج والإحرام.

إن العباس فنان بارع في فنه انه يتبع الصورة بالصورة، ويربط الموقف بالموقف في تعدد منقطع النظير، وجرأة إن لم تكن مستساغة أو مستملحة فهي غير فجة ولا مرفوضة، ومنطق اذا لم نعجب به فإننا لا نستطيع الاعتراض عليه.

ولعل سِرَّ سعة باع العباس في هذا السبيلَ في أنه يجمع في شعره وفكره وخواطره أحاسيس البداوة وطهر العذرية في مزاجٍ من أسلوب الحضارة وطراوة المدينة مع حسن التصرف وعفة المقصد، أضف إلى ذلك كله تفرغ العباس تفرغاً كاملاً للحب، عاش في محرابه، واكتوى بناره، ونعم بلذته، وأخلص القول فيه، فكان أن صادف من التوفيق والبراعة في التعبير عن نفسه ما لم يتوفر لغيره من الشعراء العاشقين.

وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نعرض لكل صور الحب التي جرت على لسان العباس، ولكننا سوف نحاول أن نعرض منها ما يمكن أن ينهض أساساً للحكم ويصلح شواهد للاطلاع والاستمتاع.

إن العباس يؤثر صاحبته على نفسه إذا حدث تضاد بين رغبته ورغبتها حتى ولو أدى ذلك إلى إلحاق الضرر به.

إذا سَرَّهَا أُمرٌ وفيه مساءَتي
قضيتُ لها فيما تُحِبُّ على نَفْسي
وما مَرَّ يومٌ أرْتَجِي فِيهِ راحتي
فَأُخْبِرُهُ إلَّا بَكَيْتُ على أمْسِ

ومرة ثانية يعمد العباس إلى موقف إيثار صاحبته على نفسه، ولكنه هذه المرة يقرر الإيثار وقد سبقه عتاب ولحقه هجران. ويصف ما سببه هذا الهجران من ألم وأثر ذلك على

نفسه بصورة لم يسبقه إليها شاعر من قبل حيث يجعل بعضه يبكي على بعضه الآخر تألماً وشكوى وتفجعاً فيقول:

إذا جَاءَني منها الكتابُ بِعَتْبِهَا
خَلَوْتُ بِنَفْسِي حيثُ كُنْتُ من الأَرضِ
وأَبْكِي لِنَفْسِي رَحْمَةً مِنْ عِتَابِها
وَيَبْكِي من الهِجْرَانِ بَعْضِي علي بَعْضِي
وإِنِّي لأَخْشَاهَا مُسِيئاً وَمُحْسِناً
وَأَقْضِي على نفسي لها بالَّذي تَقْضِي
فحتَّى مَتَى رُوحُ الرِّضا لا يُصِيبُني
وحتَّى مَتَى أَيَّامُ سُخْطِكِ لا تَمْضِي

وللعباس بن الأحنف في الزيارة نماذج من الشعر الجذاب، ومعانٍ من القول المعجب، الرقيق المطرب. إنه يجري حواراً طريفاً يتركز في سؤال وجواب، سؤال صادر منه وجواب صادر إليه، والظريف أنه يتقمص في الجواب شخصية محبوبته محاكياً لغة المرأة وأسلوبها وخوفها ودلالها فيقول:

قلتُ: الزيارةَ، قالتْ وهي ضاحكةٌ:
الله يَعْلَمُ فيها كُنْهَ إِضْمَارِي
فكيفَ أَصْنَعُ بالواشينَ ـ لا سَلِمُوا ـ
والحَلْيُ والطِّيبُ يَأْتيهم بأَسْرَارِي

وتسمو صور العشق وترق الى حد الشفافية حين يتشاكى العباس وصاحبته عند اللقاء، ويركز العباس على عفة الحديث وطهر اللقاء بحيث لو سمعت الطيور نجواهما لعكفن على ترديدها، إذْ بعفة الحب وطهر اللقاء يضعان للعشاق من بعدهما دستوراً وللمحبين مبادىء وسنناً حيث يقول:

إذا التَقَيْنَا شَكَوْنَا ما نُكَاتِمُهُ
في عفةٍ وحَديثٍ من هُنَا وهُنَا
لو تَسْمَعُ الطيرُ ما نشكو عَكَفْنَ بنا
كما عَكَفْنَ بداوودَ الذي افْتُتِنَا
فما تَزَالُ لنا أشياءُ نُحْدِثُها
تكونُ للناسِ فِيمَا بَعْدَنَا سُنَنَا

وتتكرر المناجاة، وتطول المشاكاة، ويتعدد اللقاء بين العاشقين، ويعمد في أبياته إلى أسباب من الصدق والصفاء في القول، وإلى سمات من الانفعال لم يستطع كتمانها وقرائن على العشق لم يجد حرجاً في إعلانها، بل إنه قصد إلى إعلانها لكي يصير ومعشوقته أحدوثة الزمان في كل مكان:

قُلْ لِلَّتِي وصَفَتْ مَحَبَّتَها
لِلْمُسْتَهَامِ بِذِكْرِهَا الصَّبِّ

مَـا قُـلْتِ إلاَّ الـحـقَّ أعْـرِفُـهُ
أجِـدُ الـدلـيـلَ عَـلَيْـهِ مـن قـلبـي
قَـلْبِـي وَقَـلْبُـكِ بِـدْعَـةٌ خُـلِقَـا
يـتـجـاذبـان بِـصَـادِقِ الـحُـبِّ
يَـتَـهَـادَيـانِ هـوىً سَـيَـتْـرُكُـنَـا
أحْـدُوثَـةً فـي الـشَّـرْقِ والـغَـرْبِ

وها هو يخاطب الحب وكأنه إنسان يعقل، فلا يلبث الحبُ أن يجيبه بأنه سيد العشاق ورأس المحبين، وها هو يدعو عليه ألا يشفى من حبه ولا يبلُ[1] من وجده، إنها واحدة من الصور الكثيرة للعشق في قاموس العباس يكررها وكأنه يطرب لها رغم ما تحمل إليه من تعاسة وشقاء.

كَتَبَ الـحُبُ في جَبِيْنِي كتـابـاً
بَـيِّـنـاً كـالـكـتـابِ فـي الـقِـرْطـاسِ
أنـتَ فـي الـحـبِّ رأس كـلِّ مُـحِـبٍّ
لاَ شَـفَـاكَ الإلـهُ مِـمَّـا تُـقـاسِـي

ومن صور العشق التي يعرضها العباس بن الأحنف ولُوْجُهُ باب تحليل نفسية المرأة المعشوقة في بعض حالاتها. فهو يعجب من سلوك محبوبته، وتقلب مزاجها، وتطرفها في

---

(١) يشفى.

الدلال، وتناقضاتها في التصرف، وتضاربها في الأحكام، وخشونتها في السلوك وكأنها لا تعرف الحب، وكأن الحب لم يجد طريقاً الى قلبها. ويجري الشاعر مقارنة بين قلبه وقلبها، ومشاعره ومشاعرها، فهو على الرغم مما هي عليه من خشونة وتمنع وإعراض، نجده يسعى إلى التقرب منها، وطلب رضاها، ويتمنى أن تلقى بعض ما يلقى من وجد وعذاب فتقاسمه الهوى وتشاركه نفس الشعور. إن العباس يقدم صورة من العشق مشحونة بالصور، موسومة بالحركة، مليئة بالزينة اللفظية ـ من مقابلة وطباق ـ فرضتها عليه طبيعة المواقف المتعارضة والأهواء المتناقضة مع معشوقته، ويبدو العباس مغيظاً في أبياته بحيث قرن الكثير من الجد بغير قليل من الهزل إظهاراً لامتعاضه وتسجيلاً لسخريته من سلوك محبوبته وهو سلوك أقل ما يقال عنه انه صلف متعال معرض مغرور. حتى انه لو رضيت يوماً لم يسعد بهذا الرضا لعلمه أنه سوف يتبعه الخصام والعتاب، ويبكي إذا هي أذنبت خوفاً من صدها، ويسألها مرضاتها وهي المذنبة حيث يقول:

. . . إذا رَضِيتْ لم يَهْنِني ذلك الرِّضَا
لِعِلْمِي بِهِ ان سوف يَتْبَعُهُ العَتْبُ
وأبكي إذا ما أَذْنَبَتْ خَوْفَ صَدِّهَا
وأسألُهَا مَرْضَاتَهَا ولها الذَّنبُ

ولــو أنَّ لـي تِسـعِينَ قلبـاً تـشـاغَلَتْ
جميعـاً فلمْ يَفْـرَغْ الى غيـرِهـا قَلْبُ
ولَمْ أرَ مَنْ لا يَعْـرِفُ الحبَّ غَيْـرَهـا
ولـمْ أرَ مِثْلي حَشْـوَ أثـوَابِـهِ الـحُـبُّ
وَصَـالُكُـمُ صَـرْمٌ[1] وَحُـبُّـكُـمُ قِـلىً[2]
وَعَـطْفُكُـمُ صَـدٌّ وَسِـلْمُكُـمُ حَـرْبُ
وأنْـتُـمْ بِـحَـمْـدِ اللهِ فـيكُـمْ فَـظَاظَـةٌ
فكــلُّ ذَلُـولٍ[3] في جَـوَانِبِكُـمْ صعـبُ
فَهَجـرِي لكمْ عَتْبٌ وَوَصْلي لكـمْ أذىً
فــلا هَجْـرُكُمْ هَـجْـرٌ ولا حُبُّكُمْ حُـبُّ
تَـرَى الـرِّجْـلَ تَسْعَى بي إلى مَنْ أحِبُّهُ
ومـا الرِّجْـلُ إلا حَيْثُ يَسعَى بهـا القَلْبُ

إنَّ علاقات المحبين ليست كلها هجر وخصام، ففيها أيضاً لقاء ووصال الأمر الذي يوحي بالأَمَلِ والفرحة، إن العباس يعبر عن هذا الموقف تعبيراً لا يخلو من طرافة، فهو يجعل اللقاء ضرباً من النعم، وهو يرى أنه بالشكر تدوم النعم في هذا القول الطريف:

---

(١) صرم: بعد وقطيعة.
(٢) قِلىً: كـره ـ بغض.
(٣) سهل القيادة.

زَادَكَ اللهُ سروراً إنَّ مَنْ
كُنْتَ مُشْتَاقاً إليهِ قد قَدِمْ
عِشْ قَريرَ العَيْنِ مَسْرُوراً بهِ
فيزيدُ اللهُ بالشُّكْرِ النِّعَمْ

وحديث العيون لغة معروفة عند العشاق، لا يفهمه إلا العاشقان المتواجهان: الرضى والغضب، والسخط والعتب، والافصاح والكتمان، إلى غير ذلك مما دُرِبَ عليه العشاق ومارسه المحبون بحيث يتحدثون صمتاً ويفهمون حيث لا يفهم سواهم من الحاضرين. يقول العباس في هذا المقام:

تَحَدَّثُ عَنَّا في الوُجُوهِ عُيُونُنَا
ونحن سُكُوتٌ والهوى يتكلمُ
ونَغْضَبُ أَحْيَاناً ونَرْضَى بطَرفِنَا
وذَلِكَ فيما بَيْنَنَا ليس يُعْلَمُ
إذَا ما اتَّقَيْنَا رَمقَةً من مُبَلِّغٍ
فأَعْيُنُنَا عنَّا تُجِيبُ وَتَفْهَمُ

إن العباس قد تمرس في الحب ومارسه فأصبح عاشقاً حُجَةً في العشق، محباً ملماً بدقائق مواقف الحب، وها هو يعود الى التعبير عن لغة العيون مرة أخرى عند المحبين وحديثها فيقول:

يَـدُلُّ على مَـا بـالمُحِبِّ مـن الهـوى
تَقَلُّبُ عَـينيْـهِ إلى شَـخْص مَنْ يَـهْـوَى
وإنْ أَضْـمَـرَ الـحـبَّ الـذي فـي فُـؤَادِهِ
فـإنَّ الـذي في العَيْنِ والـوَجْـهِ لا يَخْفَى

وها هو يجعل من نفسه داعية للحب، وصاحب مذهب فيه يدعو الناس إليه، ملقياً هذا المذهب الطريف بين أيدي الخليين قائلاً:

تَـحـبَّبْ فـإنَّ الـحُـبَّ دَاعِـيَـةُ الـحُـبِّ
وكم من بَعِيدِ الـدَّارِ مُسْتَـوْجَبِ القُـرْبِ
تَـبيَّـنْ فـإنْ حُـدِّثـتَ أَنَّ أَخَـا هَـوىً
نَجَـا سـالمـاً فـارْجُ النَّجَـاةَ مِنْ الكَـرْبِ
وأَحْسَنُ أيَّـامِ الهَـوَى يَـوْمُـكَ الـذِي
تُـرَوَّعُ بـالـهِجْـرانِ فِـيـهِ وبـالـعَـتْبِ
إذا لم يَكُنْ في الحُبِّ سُخْطٌ ولا رِضَـا
فـأَيـنَ حـلاواتُ الـرَّسَـائـلِ والكُـتْبِ

ويصر العباس على انتهاج طريق الحب والهوى وكأنه يعطي العهد ألا يعيش إلا عاشقاً في إقامته وترحاله، وفي سعيه وتطوافه، وفي حله وإحرامه، فهو يستصرخ فقهاء مكة يستصدر منهم فتوى حيال عاشق محرم حول البيت. وتلك

لعمري ذروة التفاني في الحب والإصرار عليه مذهباً، فيطلب من الفقهاء هذا الطلب الطريف من خلال هذه الصيغة الشعرية الممتعة:

يَـا أَهْـلَ مَـكَّـةَ مـا يـرى فُقَهَـاؤُكُمْ
فـي عـاشِـقٍ مُـتَـعَـاهِـدٍ لِـسَـلَامِ
أَتَـرَوْنَ ذلِـكَ ضـائِـراً إِحْـرامَـهُ
أم لَـيْسَ ذاك بِـضَـائِـرِ الإِحـرامِ

الحق يُقال: ان العباس بن الأحنف واسع الباع طويل الذراع في تصوير مواقف العشق، حسن التصرف ظريف التعبير في توصيف مقامات الحب، رحب الخيال عبقري الإبداع في الغوص إلى أعماق النفس البشرية العاشقة.

مقومات شعر العباس كل صديق يرضى ويغضب

يتميز أسلوب العباس في شعره بالسهولة الممتنعة، كما يمتاز العباس نفسه بالنفس الطويل في الترجمة عن أحاسيس العشاق ولواعج الأشواق ونفوس المعشوقات ووصف مواقف الحب وإجراء الحوار بين المحبين في طلاقة وسلاسة تجمع بين حلاوة البداوة وطلاوة الحضر، فهو يجمع في شعره بين محاسن التقليد وطرائف التجديد، وقد بلغ العباس حداً رفيعاً من الإجادة في وصف المرأة وصفاً معنوياً غير حسي ولا جنسي لم يكد يبلغه شاعر آخر من الشعراء العاشقين مثل قوله:

لَـو يَقْسِـمُ الله جـزءاً من مَـحَـاسِنِـهَـا
في النَّـاس طُـرّاً لَتَمَّ الحُسنُ في النَّـاسِ
أبْصَـرْتُ شَيْبـاً بمـولاهـا فَـوَاعَـجَبـاً
لمن يَـرَاهـا وَيَبْـدُو الشَّيْبُ في الـرَّاسِ

واحترام المرأة وإجلال المحبوبة والبعد عن امتهانها، بل مداومة الاحتفال بها وذلك أمر واضح في قوله:

إنَّـكَ لَـوْ أَبْـصَـرْتَـهَـا مَـرَّةً
أَجْـلَلْتَـهَـا أَنْ تَـتَـمَـنَّـاهَـا

أو قوله في كثير من شعره حين يوجه إليها الخطاب بـ «بسيدتي» تارة و «مليكي» تارة ثانية و «أميرتي» تارة ثالثة كما في قوله:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عن مَلِيْكِي أصابِرٌ
إذَا غِبْتُ عَنْهُ أم يَرِقُّ ويجزعُ
تَلَفَّتُ خَلْفِي حيثُ لم تَبْقَ حِيلَةٌ
وَزَوَّدْتُ عَيْنِي نَظْرَةً وَهْيَ تَدْمَعُ

أو قوله وقد جعل حبيبته أميرته:

بَخِلَتْ عَلَيَّ أَمِيرَتي بكِتَابِها
وتبدَّلَتْ بصُدُودِهَا وَحِجَابِهَا

لقد أكثر الشعراء العاشقون من القول في تمجيد الحب وإبداء الوله بالحبيبة، ولكن واحداً منهم لم يخلع عليها صفات الاحترام وألبسة التكريم مثلما فعل العباس بن الأحنف. والعباس يجمع طرفي الإجادة في القول من خلال البحور الطويلة والقصيرة على حد سواء، وإن عاطفته لا تفتر اذا ما استعمل البحور القصيرة، على عكس الحال عند غيره من الشعراء:

إنَّمَا أبْكِي لأنِّي صِرْتُ لِلحُبِّ تَبِيعَا
مَا دَعَانِي الشوقُ إلَّا دَرَّتِ العَيْنُ دُمُوعَا

مــا أَرَانِـي عن حَـبيـبـي آخِـرَ الـدَهْـرِ نَـزُوعـا
أَحْـسَـنُ الـنـاسِ وأوْلـى الـنَّاسِ بـالـحُسْنِ جَميعَـا

فهذه الأبيات على قصر بحرها مشحونة بالعاطفة شحنة الأبيات الكثيرة التي مَرَّ ذِكْرُهَا في الشكوى على البحور الطويلة. وديوان العباس مليء بالشعر القصير البحور المترع بالعواطف البعيد الأعماق. ويتقن العباس أساليب التنـدر والسخرية من خلال شعره الغزلي المفعم بالحرارة والحيوية:

وأَنْـتُـمْ بـحـمـدِ اللهِ فـيـكُـمْ فـظاظـةٌ
فـكـلُّ ذَلُـولٍ في جَـوَانِـبِكُـمْ صَـعْـبُ

أو قوله المتسم بالظرف والمرارة معاً.

مــا زلـتُ أَسْخَـرُ مِـمَّـنْ يُـحِـبُّ مَـنْ لا يُـحِـبُّـهُ
حـتى ابـتُـلِـيتُ بـمـن لا يُـحِـبُّـنِـي وأُحِـبُّـهْ
يهـوى بِعَـادي وَهَـجْـرِي ومُنْيَتِي الـدَّهْـرَ قُـرْبُـهْ
فَـلَـيـتَ قـلـبـي لـهُ كـانَ مِـثْـلَ مَـا لِـيَ قَـلْـبُـهْ

ويمتاز شعر العباس بوفرة الصور الغزلية، وغناه بها الى حد الترف إن لم يكن السرف، وهو في حاليه مقبول القول مأمون الغاية، ينسرب إلى النفس انسراباً، فمن صوره اللطيفة الكثيرة قوله:

يــا رُبَّ لائـمـةٍ يـا فـوزُ قـلتُ لـهـا
واللوْم فِيْـكِ ـ لَعَمْـرِي ـ غيـر مُحْـتَقَـرِ

مَـا في النِسَـاءِ سـوى فـوزٍ لنـا أَرَبٌ
فَـارْضِي بِـذَلِـكَ أو عُضِّي على حَجَـرِ

كما أبدع صوراً فاتنة أخرى في صاحبته ظلوم التي يقول فيها:

لا تَـلُومِـي عـلى ظـلومٍ فـإنَّ الـ
ـلُّومَ فـيـهـا مـخـالـفٌ لـلـسَّدادِ

مُـبْتَـدَا الـحُـسْنِ صِيـغَ مِنْهَـا ومِنْهَـا
فُـرِّقَ الـحُـسْنُ في جمـيـعِ الـعِبَـادِ

والحديث عن الصور الفنية للحب والمحبوب في شعر العباس يصل بنا الى الحديث عن التشبيهات في غزله، وكما ان شعر العباس غني بالصور، فهو غنيٌ أيضاً بالتشبيهات الأنيقة الجديدة المبتكرة، وربما كان بعضها بكراً لم يسبق العباس إليها شاعر آخر، وذلك مثل قوله:

صُـرْتُ كـأنِّـي ذُبـالـةٌ نُـصِـبَـت
تُـضِـيءُ لـلـنـاسِ وهـي تَـحْـتَـرِقُ

إنه تشبيه حضاري عقلي ثقافي متمدن، وهو جديد في فكرته وصياغته. ومن التشبيهات الحضارية الأنيقة التي تفتقت عنها شاعرية العباس بقوله:

بـيـضـاءُ في حُـمْـرِ الـثِـيَـابِ كَـوَرْدَةٍ
بَـيْـضَـاءَ بيـن شَـقَـائِقِ الـنُّـعْـمَـانِ

تَهْتَـزُّ في غَيْـدِ[1] الـشَّبَـابِ إذا مَـشَتْ
مِـثْـلَ اهْـتِـزَازِ نَـوَاعِـمِ الأغْـصَـانِ

أو قوله من تشبيه آخر رائق المعنى لطيف الصوغ متلفع بالحِسِّ الحضاري:

ذَكَـرتُـكِ بـالتُّفَّـاحِ لَـمَّـا شَـمَـمْـتُـهُ
وبـالـرَّاحِ لَمَّـا قـابَلَتْ أَوْجُـهَ الشَّـرْبِ
تَـذَكَّـرْتُ بـالتُّفَّـاحِ مِـنْـكِ سـوالفـاً
وبـالـرَّاحِ طعمـاً من مُقَبَّلِكِ الـعَـذْبِ

ويشبه العباس صاحبته بالقمر أو الهلال حيناً، وبالشمس أحياناً، وهو يكثر القول في تشبيهها بالشمس، ثم يعدل الى فنون أخرى من التشبيهات الطريفة المبتدعة التي تتأرجح بين الثبات والحركة وذلك في قوله:

إنـي طـربـتُ إلـى شـمسٍ إذا طَـلَعـتْ
كـانتْ مشـارِقُهـا جَـوْفَ المـقَـاصِيـرِ
شَـمْسٍ ممـثـلةٍ فـي خَـلْقِ جـاريـةٍ
كـأنمـا كَشْحُهَـا[2] طيُّ الـطَّوَامِيـر[3]

---

(١) غِيدَ غيداً: تمايل وتثنّى في لين ونُعُومة.
(٢) ما بين الخاصرة والضلوع.
(٣) الصحف. والكتب ـ ج. طامور وطومار وهو الصحيفة.

لـيسـتْ مِـنْ الإنْس إلاَّ فـي مـنـاسـبـةٍ
ولا مِـنَ الـجِـنِّ إلاَّ فـي الـتَّـصَـاوِيـرِ
فـالجسـمُ مِنْ لُـؤلُؤٍ والـشَّـعْـرُ مِـنْ ظُلَمٍ
والنَّشْـر مِنْ مِسكـةٍ والـوجـهُ من نُـورِ
كـأَنَّهـا حيـنَ تَمْشِي فـي وَصَـائِفِـهـا
تَخْـطُو علي البَيْض أو خُضْـرِ القَـوَارِيـرِ

ولقد افتتن كثير من النقاد بالتشبيه الذي ضمنه العباس البيت الأخير بحيث ان أكثر الذين ترجموا للعباس أو احتفلوا بشعره قد منحوا هذا التشبيه اهتماماً خاصاً. وتتسع دائرة التشبيهات عند العباس فتشمل كل ما يتصل بالعاشق والمعشوق من رسائل وكتب ولباس وزينة وأدوات. فهذا خاتم لقي نصيباً من مداعبة الحبيب، فكان ذلك حافزاً لشاعرية العباس أن تنطلق وتقدم لنا هذا التشبيه البديع:

خـاتـمٌ لـي مَـا لَـهُ أَثَـر
فـيـهِ مِنْ عَضِّ الـحـبـيـبِ أثَـرْ
سَـطَعَـتْ بـالـمـسـكِ دَارَتُـهُ
وأَضـاءَتْ مِـثْـلَ ضَـوْءِ قَـمَـرْ
فـهـو كـالـتَّـعـويـذِ فـي عَـضُـدٍ
صُـنْـتُـهُ كـيْ لا يـراه بَـشَـرْ

ليس من شك أن العباس بن الأحنف صاحب ذوق رفيع وحس مرهف وشاعرية لبقة وتصرف حسن في خلق التشبيهات وابتداعها، وتلك طبيعة الفنان الأصيل، وليس هناك من خلاف على أصالة العباس في فنه وحسه وذوقه.

والحديث عن التشبيهات عند العباس، وهي ضرب من البيان يجرنا إلى الحديث عن الصنعة البديعية. رغم أن العباس لم يكن به تحمس للفنون البديعية بشكل ملحوظ إلّا من خلال الطباق والمقابلة، فإنه يكثر منهما غير متعمد وإنما يأتيا على لسانه بصورة عفوية، ويستخدمها في خدمة المعاني مستهدفاً إثراءها. فقد يصادف القارىء لشعر العباس شيئاً من الجناس غير التام مثل قوله:

قالت ظلوم سَمِيَّةُ الظُّلْمِ
مَا لي رَأَيْتُكَ نَاحِلَ الجِسْمِ

أو قوله:

فلو قَدْ تَوَلَّى وسَارَ الحبيبُ
لكانَ مَكَانَ دُمُوعي دَمُ

فالجناس الناقص كما نرى في ظلوم وظلم، وفي كان ومكان، ودموع ودم.

وقد نصادف مراعاة النظير في مثل قوله:

وفي العِشقِ كاسانِ مَسْمُومَتَا

نِ طعْمُهما الصَّابُ[1] والعَلقَمُ

فإحْداهُمَا كأْسُ هجْرِ الحبيبِ

وكأْسُ الفِرَاقِ هي الصَّيْلَمُ[2]

قد يصادف القارىء شيئاً من ذلك في شعر العباس، ولكنه قليل غير ذي جلبة أو ضوضاء، وأمّا الذي يكثر منه من فنون البديع فهو الطباق والمقابلة مثل قوله:

ومُنْسَعِدٍ جاءَ مسروراً بِتَهْنِئَةٍ

فَلمْ يَرِمْ أنْ بَكى حُزناً وعزَّاهُ

وشارِبُ الحُبِّ وِرْدُ الموتِ غايَتُهُ

وقَد وجدْتُ أمَرَّ الحُبِّ أحْلاَهُ

أو قوله:

يا ويْحَ مَنْ عَلِقَ الأحِبَّةُ قَلْبَهُ

حتَّى إذا ظَفِرُوا بِهِ قَتَلُوهُ

عَزُّوا ومال بِهِ الهوى فأذَلَّهُ

إنَّ العزِيزَ على الذَّليلِ يَتِيهُ

ولعل ذروة الصنعة البديعية غير الثقيلة في نطاق الطباق والمقابلة تتمثل في الأبيات التالية المشحونة بالمرارة بحيث

---

(١) نبات ذو طعم مُرّ.

(٢) الكاثرة.

عمد الشاعر إلى الاتيان بالصفة وعكسها، والخلة ونقيضها، ليرسم صورة واضحة المعالم لصاحبته الملولة التي لا تثبت على حال والناكثة للعهد المتقلبة المزاج، التي تصدر عن منطق منحرف ومنطلق معوج، يقول العباس:

وِصَالُكُمُ صَرْمٌ[1] وَحُبُّكُمُ قِلىً[2]
وَعَطْفُكُمُ صَدٌّ[3] وَسِلْمُكُمُ حَرْبُ

وأنْتُمْ بِحَمْدِ اللهِ فيكُمْ فَظَاظَةٌ[4]
فكلُّ ذَلولٍ[5] في جَوَانِبِكُمْ صَعْبُ

فَهَجْرِي لكم عَتْبٌ وَوَصْلي لَكُمْ أذىً
فلا هجْرُكُمْ هَجْرٌ ولا حُبُّكُمْ حُبُّ

لقد كان العباس يستخدم البديع حيث يحلو استخدامه، ويعرض عنه إذا أحسَّ أنه يؤدي إلى الإخلال برونق الصورة الشعرية أو جوهر المعنى الذي يهدف إليه.

هذا والعباس كواحد من أرق الشعراء الغزلين يحسن صياغة الحوار الشعري، ويتقن صناعة الحديث على لسان معشوقته[6]، والظاهرة الطريفة عند العباس هي إجراء الحوار

---

(١) قطيعة. (٢) بغض وكره. (٣) هجران وبعد.
(٤) جلفٌ ـ خشن الطباع. (٥) سهل القيادة.
(٦) انظر الديوان صفحات ١٧٧ ـ ١٧٨ ـ ١٩٧، ٢٧.

بين العينين والقلب لإظهار أيهما جنى عليه ورزأه[1] بالحب الذي برى جسمه وأضنى قلبه ونفسه، فمن ذلك قوله:

إذا لُمْتُ عينيَّ اللتين أضرَّتا
بجسْمِيَ فِيكُمْ قالتا لي: لُمِ القَلْبا
فإن لُمْتُ قَلْبِي قال: عَيناكَ هاجَتا
عليكَ الذي تَلْقى، وَلِي تجعَلُ الذَّنبا
وقالتْ لهُ العينانِ: أنْتَ عَشِقْتَهَا
فقالَ: نَعَمْ أورثْتُمانِي بها عُجْبَا
فقالتْ له العينانِ: فاكفُفْ عن التي
مِنَ البُخْلِ ما تَسْقِيكَ من ريقِها عَذْبَا
فقالَ فؤادِي: عنكِ «لو تُرِكَ القطا
لَنَامَ» وما بَاتَ القَطا يَخرِقُ السُّهْبَا

ومجمل القول في العباس بن الأحنف أنه شاعر الغزل في العصر العباسي، لقد عاش حياته للحب والشعر، وسَخَّر ملكته الفنية السخية للفن وحده، يُسعد به الناس دون أجر، ويدخل السلوى الى قلوب العشاق دون جزاء، فلم يمدح عظيماً أو صاحب سلطان، ولم يهجُ خصماً أو حاقداً أو مبغضاً، فكان قيثارة عذبة الايقاع على شفتي الزمان، وطائراً

(١) أي ابتلاه به.

غريداً يشدو بأرق الأنغام وأعذب الألحان. كانت حياته مسرحية عاطفية رائعة تخللتها حرارة الحب، ومرارة الصد، وحرقة الشكوى، ولوعة العشق، وفرحة الوصل، وأمل اللقاء، ومشاهد الحرمان. كان الرجل يتنفس حُباً، ويفكر حُباً ويحيا حباً، ثم مات حباً، فكانت وفاته قصة محزنة مفجعة، فقد وافته المنيةُ غريباً وحيداً مسافراً على طريق الحجيج، وأسهم في مشهد وفاته غلامه وطائر حزين، ثم شارك في تكفينه والصلاة عليه قافلة من حجيج بيت الله. لقد روى لنا الأصمعي قصة وفاته فقال:

بينا أنا ذات يوم قاعد في مجلس بالبصرة، فإذا أنا بغلام أحسن الناس وجهاً وثوباً واقف على رأسي، فقال: إن مولاي يريد أن يوصي إليك، فقمتُ معه، فأخذ بيدي حتى أخرجني الى الصحراء، فإذا أنا بالعباس بن الأحنف ملقى على فراشه، وإذا هو يجود بنفسه وهو يقول:

يَا بَعِيْدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِه
مُفْرَداً يَبْكِي على شَجَنِه
كلَّمَا شدَّ النجاءُ[1] بِه
دارتِ الأسقامُ في بَدَنِه

(١) ألم الحب.

وما لبث أن أُغمي عليه، ثم انتبه على صوت طائر على شجرة وهو يقول:

وَلَقَدْ زَادَ الفُؤادَ شَجىً
هَاتِفٌ يَبْكِي عَلَى فَنَنِه
شَاقَهُ مَا شَاقَنِي فَبَكَى
كُلُّنَا يَبْكِي عَلَى سَكَنِه

ثم أغمي عليه فظننتها مثل الأولى، فحركته فإذا هو ميت.

وروى المسعودي القصة في شكل آخر على طريق الحجيج حيث استدعى غلام العباس بعض الحجاج المارة الذين حضروا وفاته وقاموا على دفنه، غير أن الروايتين متفقتان في الشعر الذي أنشده العباس قبل الإغماءة، والشعر الذي أنشده عند سماعه صوت الطائر، وهكذا يكون العباس قد عاش حياته شعراً وعشقاً، وتنفس طوال حياته حباً وشعراً، وها هو يسلم روحه على قارعة الطريق وهو ينشد شعراً ويبكي حباً ويذوب وجداً وعشقاً.

آراء كبار الأدباء والفنانين في العباس

ولئن عاب بعض الناس على العباس أنه قصر شعره على الغزل وجعلوا من ذلك علامة قصور وتقصير، فإن كبير بلغاء العربية أبا عثمان الجاحظ يجعل من ذلك آية نبوغ وعبقرية حين قال: (لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم، وأوسعهم كلاماً وخاطراً، ما قدر أن يجعل شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعراً واحداً لزم فناً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر). ولم يكن الجاحظ وحده المعجب بشاعرية العباس بن الأحنف المأخوذ برقة معانيه المفتون بعذوبة شخصيته، بل إن كثيرين غيره من ذوي القدر الرفيع من أدباء العربية ونقادها يشاركون الجاحظ رأيه هذا، ولا نجد نحن مفراً إلّا أن نشاركهم آراءهم فيه ونشاطرهم تمجيدهم إياه وإعجابهم به.

إن الأصمعي كبير رواة الشعر العربي وصاحب الاخبار الطريفة والنوادر العذبة يسأل عن أحسن ما يحفظ من شعر المحدثين، فيقول: قول العباس بن الأحنف:

لـو كنتِ عَـاتبـةً لَسَكَّنَ رَوْعَتي
أَمَلي رِضَـاكِ وَزُرْتُ غَيْـرَ مُـرَاقـبِ

لَكِنْ مَلِلْتِ فَلَمْ تَكُنْ لِيَ حيلةٌ
صَدُّ المَلُولِ خِلَافُ صَدِّ العَاتِبِ
ما ضَرَّ مَنْ قَطَعَ الرجاءَ بِبُخْلِهِ
لو كانَ عَلَّلَني بوَعْدٍ كاذِبِ
الهَمُّ أَصْبَحَ يا ظلوم مُقارِني
والهَمُّ شَرُّ مُقَارِنٍ ومُصَاحِبِ

وهذا عبد الله بن المعتز يبدي استحسانه لشعر العباس بن الأحنف وافتتانه بمعانيه حين يردد قول العباس:

أَحْرَمُ مِنْكُمْ بما أقولُ وقد
نال بِهِ العَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كأنِّي ذُبالَةٌ نُصِبتْ
تُضِيءُ للنَّاس وهي تحترِقُ

ويبدي ابن المعتز إعجابه بقوله: ان هذا القول من بديع ما للعباس وطريفه ومما ليس لأحد في معناه شيء يدانيه.

وكان المغني الأديب الفنان إبراهيم الموصلي كثير الإعجاب بشعر العباس حتى انه لم يُغَنِّ في شعر أحد من الشعراء أكثر مما غنى في شعر ذي الرمة والعباس بن الأحنف، لأن شعر ذي الرُمة خير ما يمثل صفاء البداوة وبراءتها، ولأن شعر العباس خير ما يمثل رقة الحضارة

وحرارة وجداتها. وأما إسحاق الموصلي بن ابراهيم الموصلي، وهو ذروة مِنْ ذرى الأدب والشعر والنقد والعزف والغناء والحكمة في تيار الحضارة العباسية، فكان من الإعجاب بشاعرنا بحيث لا يفتأ يردد قوله:

قِفَا خَبِّرَانِي أَيُّهَا الرَّجُلانِ
عَنِ النَّوْمِ إِنَّ الهجرَ عَنْهُ نَهَانِي
وكيفَ يكونُ النومُ أَمْ كيفَ طَعْمُهُ
صِفَا النومَ لي إنْ كُنْتُمَا تصِفَانِ
وإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إلى النَّوْمِ فاعْلَمَا
ولا عهد لي بالنَّومِ مُنْذُ زَمَانِ

وهذا شيخ الشعراء المخضرمين وإمام مدرسة المحدثين بشار بن برد يسمع قول العباس:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُعَذِّبُ نَفْسُهُ
أَقْصِرْ فإنَّ شِفاءَكَ الإقْصَارُ
نَزَفَ البُكَاءُ دُمُوعَ عينِكِ فاستعِرْ
عَيْناً يُعِينُكَ دَمْعُهَا المِدْرارُ
مَنْ ذا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تبْكِي بها
أَرَأَيْتَ عَيْناً لِلْبُكَاءِ تُعَارُ؟

فلا يلبث أن يعلق قائلاً: ما زال غلام من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها حتى قال هذا الشعر.

وإن الشاعر الكبير أبا العتاهية، يقول في العباس بن الأحنف: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:

إذا امتَنَعَ القريبُ فَلَمْ تَنَلْهُ
على قُرْبٍ فَذاكَ هُوَ البَعِيدُ

فإني كنتُ أولى به منه، وهو بشعري أشبه منه بشعره...

وإن ابن خلكان يختار في ترجمته للعباس بعض شعره ويقدم هذه الأبيات كعنوان على شاعريته وتقدمه على غيره من الشعراء في شعر الغزل العفيف:

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عنها فزِدْتَني
جُنُوناً فزِدْني مِنْ حَدِيثِكَ يا سَعْدُ

هَوَاهَا هَوىً لم يَعْرِفِ القلبُ غَيْرَهُ
فَلَيْسَ لهُ قَبْلٌ ولَيْسَ لَهُ بَعْدُ

ويروي الأصبهاني عن ابراهيم الصولي قوله في الاعجاب بشعر خاله العباس بن الأحنف قوله: ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل رقة ولا أصعب سهولة ولا أبلغ في ايجاز من قول العباس بن الأحنف:

تعالي نُجَدِّدْ دَارِسَ العَهْدِ بَيْنَنَا
كِلاَنَا على طُولِ الجَفَاءِ مَلُومُ

ويتبع ذلك بقوله:

أَبْكِي الذين أذاقُوني مَوَدَّتَهُمْ
حتى إذا أيْقظُوني لِلْهَوى رَقَدُوا

وينشد إبراهيم الصولي من شعر خاله لأبي حاتم السجستاني هذه الأبيات:

واللهِ لو أنَّ القُلُوبَ كَقَلْبِها
ما رَقَّ لِلْوَلَدِ الضعيفِ الوالِدُ

وقوله:

لكن مَلِلْتِ فلم تَكُنْ لِيَ حِيلَةٌ
صَدُّ الملُولِ خِلاَفُ صَدِّ العَاتِبِ

وقوله:

حتَّى إذا اقْتَحَمَ الفتى لُجَجَ الهوى
جاءتْ أمُورٌ لا تُطاقُ كِبَارُ

ويمضي ابراهيم قائلاً لأبي حاتم: هذا والله ما لا يقدر أحد أن يقول مثله أبداً.

وسُئل أبو نواس عن العباس وقد ضمهما مجلس فقال: هو أرق من الوهم وأحسن من الفهم.

وقيل «لعنان» جارية الناطفي، وكانت شاعرة وأديبة: من أشعرُ الناس؟ قالت: الذي يقول:

وأهْجُـرُكُمْ حتى يَقُـولُـوا لقـد سَـلا
ولستُ بِسَالٍ عن هواكِ الى الحشـرِ

ولكن إذا كــان المحبُ على الـذى
يُحِبُ شَفِيقـاً نَـازَعَ النـاسَ بـالهَجْـرِ

وجاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، . . . ومن أخبار العباس بن الأحنف، «. . . وكان شاعراً غَزِلاً ظريفاً مطبوعاً، من شعراء الدولة العباسية. وله مذهب حسن. ولديباجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف. ولم يكن يتجاوز الغزل الى مدح أو هجاء، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني».

وقدَّمه أبو العباس المبرِّد في كتاب «الروضة»[1] على نظرائه، وأطنب في وصفه. حيث يقول: . . . وكان من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء. وكان غزِلاً ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة، ملوكي المذهب، شديد الترف، وذلك بَيِّنٌ في شعره وقيل: كان من عرب خراسان ومنشؤه ببغداد. . .

(١) وهو من الكتب المفقودة.

وذُكر ان سعيد بن حميد[1] كان يقول: ما أعرف أحسن من شعر العباس بن الأحنف في اخفاء أمره، حيث يقول في ذلك:

أريـدُكِ بـالسَّـلاَمَ فـأتَـقِـيَـهـمْ
فـأعـمـدُ بـالـسـلامِ الـى سِـواكِ
وأكـثـرُ فِـيـهـمُ ضَـحِكِـي لـيـخـفـى
فـسـنّـي ضَـاحِـكٌ والـقـلـبُ بـاكـي

هذا ما كان من شأن اعجاب الأقدمين من الأدباء والنقاد في تقييم شعر العباس بن الأحنف وإبداء الاعجاب به، غير ان شخصية العباس وخُلُقه وسلوكه لم تكن تقلُّ رقة وعذوبة ونقاءً عن رقة شعره وعذوبته ونقائه، فلقد كان حسبما وصفه محمد بن عامر الحنفي ـ شاعراً ظريفاً مفوهاً منطقياً مطبوعاً، وكان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة، وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يبقي المال في يديه ولا يحبس ما يملك.

ويصفه إبراهيم بن العباس الصولي ـ وكان وثيق الصلة به بحكم كونه ابن أخته فيقول: كان والله إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان، لو شئت أن تقول إن كلامه كله شعر لقلت.

---

(١) كاتب وأديب عباسي كان كثير الاغارة على من سبقه.

ولا بدَّ من القول: إن شعر العباس يتناهى في اللطف ورقة الشعور، وجمال الديباجة، ومتانة التركيب، ومقاطعه كلها من السهل الممتنع، على أن قصائده لا تخلو من ألفاظ يحتاج معها مطالعها الى المعجم. أما معانيه فهي تلك المعاني التي كانت في أيّامه، غير أنّه أبرزها في حلّة جميلة صافية، حسنة الإيقاع تلذ القلب والأذن وتعلق بالأذهان في سهولة ويُسرٍ. تلك كانت صفات أبي الفضل العباس بن الأحنف وسمات شعره، نرجو أن نكون قد أوفيناه حقه، واستطعنا أن نعطي فكرة واضحة عن حياته وأدبه وشخصه.

والله ولي التوفيق.

نماذج من شعره

زين النساء

أزَيـنَ نِـسـاءِ الـعـالَـمِـينَ أجِـيـبـي
دُعـاءَ مـعـشـوقٍ بـالـعِـراقِ غـريـبِ
كَـتَـبْـتُ كِـتـابي مـا أُقـيـمُ حُـرُوْفَـهُ
لِـشِـدَّةِ إعـوالي وطُـولِ نـحـيـبي
أَخُطُّ وأمـحـو مـا خَـطَـطْتُ بِـعَـبـرةٍ
تَسُحُّ على القُـرطـاسِ سَحَّ غُـروبِ[1]
أيـا فـوزُ لـو أَبْصَـرْتِـنِي مـا عَـرَفْتِنِي
لـطولِ شُجـوني بعـدَكُم وشُحُـوبِي[2]
وأنـتِ من الـدُّنـيـا نَصِيبِي فـإن أُمُتْ
فَـلَيْتَـكِ مـن حُـورِ الجِنَـانِ نَصِـيبي
سَـأَحْفَظُ مـا قَـدْ كـانَ بَيـني وبـينكم
وأَرعَـاكُمُ فـي مَـشْهَـدِي ومَـغـيـبي

---

(١) الغروب، الواحدة غرب: الدلو العظيمة.

(٢) الشحوب: تغير اللون، فهو يميل لونه إلى اصفرار.

وكنتم تزينون العِراقَ فَشَانَه
تَرَحُّلُكُم عَنْهُ وذاكَ مُذِيبي[1]
وكُنْتُمْ وكُنَّا في جِوارٍ بغِبطةٍ
نُخالِسُ لحظَ العينِ كلَّ رقيبِ[2]
فإن يكُ حَالَ النَاسُ بَيْني وَبَيْنَكُمْ
فإنَّ الهوى والودَّ غَيْرُ مَشُوبِ[3]
فلا ضَحِكَ الواشونَ يا فوزُ بَعْدَكُمْ.
ولا جَمَدَت عَيْنٌ جَرَتْ بِسَكُوبِ
وإني لأَسْتَهْدِي الرِّياحَ سَلامَكُمُ
إذا أَقْبَلَتْ من نحوِكم بِهبُوبِ
وأسألُها حَمْلَ السلامِ إلَيْكُمُ
فإنْ هي يوماً بَلَّغتْ فأجِيبِي
أرى البَيْنَ يَشْكُوهُ المُحِبُّونَ كُلُّهُمْ
فيا رَبِّ قَرِّبْ دَارَ كلِّ حَبيبِ[4]

---

(١) شانه: أي عابه.

(٢) نخالس: نسالب، نخاتل.

(٣) غير مشوب: هنا أعاد الضمير إلى الودّ وحده. المشوب: المخلوط المغشوش.

(٤) البين: الفُراق، البعاد.

وأبـيضَ سَـبَّـاقٍ طـويـلٍ نِـجَـادُه
أَشَـمَّ خـصـيـبِ الـراحـتَـيـنِ وَهُـوبِ[1]
أنـافِ بـضَبْـعَـيْـهِ إلـى فَـرْعِ هـاشـم
نـجيـبٌ نَـمـاهُ مـاجِـدٌ لـنَـجِـيـبِ[2]
لَـحَـانِي فَـلـمَّـا شَـامَ بَـرقي وأمْـطَرَتْ
جُـفُـوني بَكَى لي مـوجَـعـاً لكُـرُوبِي[3]
فـقـلتُ أعـبـدَ اللهِ أسـعـدتَ ذا هـوىً
يُـحَـاوِلُ قـلبـاً مُـبتـلىً بـنُـكُـوبِ[4]
سَـأسقيـكَ نَـدْمـاني بكـأسٍ مِـزاجُـهـا
أفـانـيـنُ دَمـعٍ مُـسْـبَـلٍ وسَـروبِ[5]
ألـم تَـرَ أنَّ الـحُـبَّ أخْـلقَ جِـدَّتـي
وشَـيَّـبَ رأسـي قَبْـلَ حِـينِ مَـشِـيـبـي[6]

---

(١) طويل النجاد: كناية عن طول القامة، والنجاد: حمالة السيف. الاشم: السيد ذو الانفة.

(٢) نماه: نسبه، رفع نسبه.

(٣) لحاني: لامني. شام: رأى.

(٤) لعله أراد بعبد الله الذي وصفه بتلك الصفات الحسنة المأمون بن هارون الرشيد، أو أنه أراد نديماً اسمه كذلك.

(٥) السروب، على وزن فعول من سرب الماء يسرب، إذا جرى وسال.

(٦) أخلق، جعله خَلِقاً: أي قديماً وبالياً.

أَلا أَيُّهَا البَاكونَ من أَلَمِ الهَوى
أظنكُمُ أدرِكتُمُ بِذُنوبِ[1]
تَعَالَوا نُدافِعْ جُهْدَنَا عن قُلوبِنَا
فيُوشِكُ أن نَبْقَى بِغيرِ قُلُوبِ
كأن لم تكُنْ فوزٌ لأهلِكَ جارةً
بأكنافِ شَطٍّ أو تَكنْ بنَسِيبِ[2]
أقولُ وداري بالعِراقِ ودارُها
حِجازِيَّةٌ في حَرَّةٍ وسُهوبِ[3]
وكلُّ قَريبِ الدَّارِ لا بُدَّ مَرَّةً
سيُصبحُ يوماً وهو غيرُ قريبِ
سقَى مَنزلاً بين العَقيقِ وَوَاقمٍ
إلى كل أُطْمٍ بالحجازِ وَلُوبِ[4]
أَجَشُّ هزيمِ الرَّعدِ دانٍ رَبابُه
يجودُ بِسُقْيا شمألٍ وجَنُوبِ[5]

(١) ذنوب: اسم موضع بعينه، إذا كانت الذال بالفتح، أما اذا كانت بالضم فيكون المعنى أن ما أصابكم انما هو بسببي.
(٢) شط: قرية باليمامة. النسيب: القريب.
(٣) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار. السهوب، الواحد سهب: أي الفلاة.
(٤) العقيق وواقم: موضعان في الحجاز. الأطم: الحصن. اللوب، الواحدة لابه: الحرة من الأرض.
(٥) الهزيم: صوت الرعد كأنه يتكسر، ربابه: سحابه الأبيض.

أزوّارَ بَيتِ اللهِ مُرّوا بيَثرب

لحاجةِ مَتبولِ الفُؤاد كَئيبِ[1]

إذا ما أتيتُمْ يَثرِباً فابدَأوا بِها

بلطمِ خدودٍ أو بشَقِّ جيُوبِ[2]

وقولوا لهم يا أهلَ يَثربَ أسْعِدُوا

على جَلَبٍ للحادثاتِ جَليبِ

فإنّا تَركنا بالعِراقِ أخا هوىً

تَنَشَّبَ رَهناً في حِبالِ شعوبِ[3]

به سَقَمٌ أعيَا المُداوين علمُهُ

سوى ظنِّهم من مخطىءٍ ومُصيبِ

إذا ما عَصَرنا الماءَ في فِيه مَجَّهُ

وإن نحنُ نادَينا فغيرُ مُجِيْبِ[3]

تأنّوا فبكُّوني صُراحاً بِنسبتي

ليعلمَ ما تَعنون كلُّ غريبِ

فإنّكُمُ إن تفعلوا ذاك تأتِكم

أمِينةُ خَودٍ كالمهاةِ لَعُوبِ

---

(١) المتبول: السقيم.

(٢) شعوب: علم للمنية.

(٣) مَجَّه: كرهه، لم يستطب طعمه.

عَــزيــزٌ عَليهــا مــا وعَـت غيــرَ أنَّهــا
نــأتْ وبنــاتُ الــدَّهــر ذاتُ خــطوبِ[١]

فَقــولــوا لهــا: قُــولي لفَــوزٍ تـعــطَّفي
عــلى جسَــدٍ لا روحَ فــيــه سَــليــبِ

خــذُوا لي مِنْهَــا جُــرعَــةً في زُجــاجــةٍ
ألا إنَّــهــا لــو تَـعــلمــونَ طبــيــبــي

وسِــيــروا فــإن أدركتُمُ بـي حُشــاشــةً
لهــا في نـواحـي الصَّــدرِ وجسُ دَبِيْبِ[٢]

فــرُشُّــوا عـلى وجهـي أُفِقْ مـن بَليّتـي
يُـثيـبُـكـمُ ذُو الـعَــرْشِ خَـيْــرُ مُـثِيــبِ

فــإن قــالَ أهلي مــا الــذي جئتُمْ بــهِ
وقَــدْ يُـحْسِــنُ التَّـعْليــلَ كــلُّ أريبِ[٣]

فقــولــوا لهم جِئنــاه مِنْ مــاء زَمــزَمٍ
لــنَـشْـفِـيــهِ مِــنْ داءٍ بــه بــذُنُــوبِ

وإن أنْتُمُ جِئْتُم وقــد حِيــلَ بَيْنَكـم
وبَـيـنـي بـيــومٍ لِـلْمَنُــونِ عَــصِـيــبِ

---

(١) بنات الدهر: حوادثه.

(٢) الوجس: الصوت الخفي.

(٣) أريب: دِربٌ، صار ماهراً بصيراً، خبيرٌ.

وصِــرتُ مِنَ الــدُّنيــا إلى قَعْــرِ حُفــرةٍ
حـليـفَ صَـفـيـحٍ مُـطبَقٍ وكَـثـيـبِ[1]
فـرشّـوا عِلى قَبْـرِي من المـاءِ وانــدُبُـوا
قَـتِـيـلَ كـعــابٍ لا قَـتيـلَ حــروبِ[2]

---

(١) الصفيح: أراد بها حجارة القبر. الكثيب: تل الرمل.
(٢) الكعاب: ج. كاعب، الفتاة في إبان بلوغها.

كل صديق يرضى ويغضب

ألم تعلمي يا فوزُ أني مُعَذَّبُ
بحبكُمُ والحَينُ للمرء يُجلَبُ[1]
وقد كنتُ أبكيكُمُ بِيَثْرِبَ مَرَّةً
وكانَتْ مُنى نَفْسِي مِنَ الأرض يَثْرِبُ
أأَمَلُكم حتى إذا ما رَجَعْتُم
أتاني صدودٌ منكمُ وتَجَنُّبُ
فإنْ سَاءَكم ما بي من الضُّرِّ فارحمُوا
وإن سرّكم هذا العذابُ فَعَذِّبوا
فأصبحتُ مما كانَ بيني وبَيْنَكُم
أُحدِّثُ عَنْكُم من لَقِيتُ فيَعْجَبُ
وقَدْ قالَ لي نَاسٌ تحمَّلْ دلالَها
فكلُّ صديقٍ سوفَ يَرضَى ويغضَبُ
وإني لأَقْلَى بَذْلَ غيرِكِ فَاعلمي
وبُخْلُكِ في صَدرِي ألَذُّ وأطيبُ[2]

---

(١) الحين: الهلاك.

(٢) أقلى: أبغض.

وإنـي أَرَى مِـن أهــلِ بـيتِـك نُـسـوةً
شَـبَـبْنَ لنـا في الـصّـدرِ نــاراً تَـلَهَّـبُ
عَــرَفْنَ الـهـوى منًّـا فـأَصْبَحنَ حُـسَّـداً
يُـخَـبِّـرْنَ عـنَّـا من يجـيءُ ويـذهـبُ
وإنـي ابـتَــلاني الـلهُ مِـنْكُـم بـخَــادِمِ
تُـبَلِّغُـكُـم عَـنِّـي الـحَـديثَ وَتَـكْـذِبُ
ولــو أصبحتْ تَسعى لِتُــوصِـلَ بيننـا
سَـعِـدتُ وأدركتُ الـذي كـنـتُ أطـلُبُ
وقــد ظَـهَــرتْ أشيـاءُ مـنكُـمْ كَـثِـيـرةٌ
ومَـــا كـنـتُ مِـنكـم مـثـلَهـا أتَـرقَّـبُ
عَــرَفْـتُ بمــا جـرَّبـتُ أشـيـاءَ جـمَّــةً
ولا يَـعـرِفُ الأشـيــاءَ إلا الـمجـرِّبُ
ولـي يــومَ شـيَّـعـتُ الـجِـنــازةَ قِـصَّـةٌ
غَـداةَ بـدَا البــدرُ الــذي كــان يُحجَبُ
أشَــرتُ إلـيهــا بــالـبَنَـانِ فَـأَعْـرَضَـتْ
تَـبَـسَّـمُ طـوراً ثـم تَـزوي فـتـقـطِـبُ
غَــداةَ رأيــتُ الـهَــاشـمـيّـةَ غُـدْوَةً
تَهَــادَى حَــوالَيها من العينِ رَبْـرَبُ[1]

---

(١) العين: بقر الوحش. الربرب: القطيع منها.

فَلم أَرَ يوماً كانَ أَحسَنَ منظراً
ونحنُ وُقُوفٌ وهي تَنأى ونَندُبُ
فلو عَلِمَتْ فوزٌ بما كان بَينَنَا
لقد كانَ مِنهَا بعضُ ما كنتُ أرهَبُ
أَلا جعلَ اللهُ الفِدا كلَّ حُرَّةٍ
لفَوزِ المُنى إني بِها لمُعذَّبُ
فما دونَها في الناس للقلبِ مَطلَبٌ
ولا خَلفَها في النَّاس للقَلبِ مذهَبُ
وإن تكُ فوزٌ باعَدَتنا وأَعْرَضَتْ
وأَصبحَ باقي حَبْلِها يتقضَّبُ[1]
وحالَت عن العهدِ الذي كان بَيْنَنَا
وصارتْ إلى غيرِ الذي كُنْتُ أَحْسَبُ
وهان عليها ما أُلاقي فربَّما
يكونُ التلاقي والقلوبُ تَقَلَّبُ
ولكنني والخَالقِ البارىءِ الذي
يُزارُ لَهُ البيتُ العَتِيقُ المُحَبَّبُ
لأسْتَمْسِكَنْ بالوُدِّ ما ذَرَّ شَارِقٌ
وما ناحَ قُمرِيٌّ وما لاحَ كوكبُ[2]

---

(١) يتقضب: يتقطع.

(٢) القمري: ضرب من الحمام.

وأَبْكي على فوزٍ بعينٍ سَخِينَةٍ
وإن زَهِدَتْ فِينَا نقولُ سَترغَبُ
ولو أنَّ لي من مَطلعِ الشَّمسِ بُكرةً
إلى حيثُ تَهْوِي بالعَشِيِّ فتَغْرُبُ
أُحيطُ بهِ مُلكاً لما كانَ عِدلَها
لَعَمْرُكَ إنِّي بالفَتَاةِ لمُعْجَبُ

ـ جويرية كلين المخ ـ

ألا تَفْتَحُ لي فوزٌ، من الرَّحمةِ، أبوابا
فَقَدْ أَلهَبَتِ النِّيرَا نَ في الأحشاء إلهابا
وفوزُ مَلَكَتْ قلبي فما تَألُوه إتعابَا
فيا مَنْ سامني التَّعذيـ بَ إلحاحاً وإكْتَابا[١]
ويا أَطيَبَ خَلْقِ اللَّـ ـهِ في الأسْحارِ أنْيَابا
أما تَرْضينَ يا حِبَّـ
ـةُ عن ذي الذَّنبِ إن تابا[٢]
كرِهتُ الصُّبْحَ أرجو را حَةَ اللَّيلِ إذا آبا
كَمَنْ فَرَّ من القَطْرِ فصَارَ القَطْرُ مِيزَابا
وكان الليلُ للشَّوقِ على المَشْغُوفِ جِلْبابا

---

(١) اكتاب: لعلها مسهل اكتئاب: الحزن. أو لعلها تحريف إكباب، من أكب على الشيء: أقبل عليه.

(٢) الحِبة: بكسر الحاء: الحبيبة.

فَخَالفْتُ كما خالـ ـفَ شِيخٌ كان كلَّابا[١]
فلوْ هَيَّأ لَهُ اللهُ من التَّوفِيقِ أسْبَابا
لَسَمَّى نفسه عَمراً وسَمَّى الكَلْبَ وَثَّابا
وفوزٌ زَرَعَتْ في القلـ ـبِ أحزاناً وأوصَابا
ولا واللهِ ما أصْبَحْـ ـتُ في ذَلك مُرتابا
فَمَنْ عَابَ هَوَى فوزٍ وعبَّاسٍ فقَدْ خَابَا
وإني أبْغِضُ الإنسا نَ أنْ ألقاه كَذَّابا
أيا قَلْبَيْنِ قد خُلِقا كَنَابِتَيْنِ جُنَّابا[٢]
يَدُومانِ على عَهدٍ إذا خلَّا وإنْ غابا
فَلَوْ يَعْلَمُ ما في الحُـ ـبِّ مَنْ عابَ لَمَا عَابَا
جُوَيْرِيَةٌ كَلِينِ المُـ ـخِّ إنْ حَرَّكتَهُ ذَابا[٣]
ولو تَتْفُلُ في البَحْرِ لَألفي البَحْرُ قد طَابا
ولو أبْصرَها طِفلٌ صَغيرُ السِّنِّ ما شَابا
وكانَتْ جَارةً للحُو رِ في الفِردَوسِ أحقابا
فَأمْسَتْ وهي في الدُّنيا وما تَألفُ أترابا
لها لُعَبٌ مُصَفَّفَةٌ تُلَقِّبُهُنَّ ألقابا
تُنادي كلما رِيعَت مِنَ الغِرَّةِ: يا بَابا

(١) الشيح: الجاد في الأمور، الحذر.
(٢) جنابا: متلاصقين، الواحدة جنب الأخرى.
(٣) المخ: نقي العظم، لب العظم، وهو ما نسميه بالنخاع.

ـ نعيم الحب وعذابه ـ

إنَّـمـا الـذَّنـبُ لـكـفٍّ كـتَـبـتْ ذاك الـكِـتـابـا
فخُـذِي بـالـذَّنْـبِ عَيْنِي وادرئي عني العِـتـابـا[1]
وَفَّـقَ الـلـهُ مَـلِيْـكـاً لي يَـرَى قَتْلِي صَـوابـا
إنَّ لـلـحُـبِّ لـحَـالَـيْـنِ: نَـعِـيـمـاً وعَـذَابـا

(١) ادرئي : ادفعي ، ردي ، امنعي .

ـ ليت الحبُّ لم يُخلق ـ

عَتَبْتُ على نفسي لِعَتْبي عَلَيْكُمُ
وما ضَرَّ غيري فاعلمي ذلك العَتْبُ
فها أَنَا هذا قد رَضِيتُ تَحَمُّلاً
لذَنْبِكِ، لا لَمْ تُذْنِبي بَل ليَ الذَّنْبُ
أباح حمى قَلبي الهوى فأَذَلَّهُ
ألا ليتَ لم أُخلَقْ ولم يُخلَقِ الحُبُّ

- بين الرضا والغضب -

أَيـا غـزالَ الـذَّهَـبِ تَـركْـتَـنـي في تَـعَـبِ
أَلـيسَ هـذا عَـجَـبـاً بـلَـى وفـوقَ الـعَـجَـبِ
أوَّلُ مـا جَـرّبـتُـكُـمْ عَـرَفْـتُـكُـم بـالـكَـذِبِ
مـا لـكُمُ لـم تـكـتُـبـوا جـوابَ تِـلـكَ الـكُـتُـبِ
قـد شَـكَّ فيـمـا جـاءهُ مـن الـوُشـاةِ الـكُـذَّبِ
فـنَـفْـسُـهُ مـوقـوفـةٌ بـينَ الـرّضـا والـغَـضَـبِ
يُـوشِـكُ أن يقـتـلَني الـ ـحـبُّ ولا يُـشـعَـرُ بـي

ـ سخطة في كل يوم ـ

بَخِلتْ عليَّ أميرتي بكتابِها
وتبذَّلتْ بصدُودِها وحِجابِها
فالنَّفسُ في كُربِ الهوى مغمورةٌ
والعينُ ما تنفكُّ من تَسْكَابِها
حتى متى في كلِّ يومٍ سَخْطَةٌ
قد ذُبتُ من سخطاتِها وعِتابها
أخذَتْ مجامعَ قلبهِ وتحوَّلَتْ
عنه فيا لكَ هائماً بشِعَابِها[1]
ماذا لقيتُ من الهوى ويحَ الهَوى
لو أنَّ نفسي في يَدَيْهِ رَمَى بِهَا
خَرَجَتْ سُعادُ تقولُ لي بشَمَاتَةٍ
زَجَرتْكَ فوزٌ أن تَمُرَّ بِبَابِها
ماذا يَرُدُّ على سُعادَ مُتيَّمٌ
قد ضاقَ عِيَّاً نُطقُهُ بجوَابِها

(١) الشعاب، الواحد شعب: وهو الطريق في الجبل، الحي العظيم، الناحية.

الـوَيـلُ لـي إنْ قمتُ أطلبُ وَصْـلَهَـا
والـوَيـلُ لـي إنْ لـم أَقُـم بِـطلابِـهـا
يـا سُعـدُ هـاتي لي بعيشِـكِ قَبضـةً
مِـنْ بَيْـتـهـا لأشُـمَّ رِيْـحَ تُـرابِـهـا
فـأكـونَ قـد أُسْقِيتُ منهـا رِيقَهـا
وأُنِلتُ حُسـنَ بنـانِهـا وخِضـابِـهـا
يـا لَيْتَنِي مِسْـواكُهـا في كَفِّـهـا
أبـداً أَشُـمُّ العُـبـرَ من أنـيـابِـهـا[1]
أو لَـيْـتَـنـي مِـرْطٌ عـليـهـا بـاطـنٌ
أَلتـذُّ نَـعـمـةَ جِـلدهـا وثـيـابِـهـا[2]
فـأكـونَ لا أنـحَـلُّ عـنـهـا سـاعـةً
دُونَ الـثِّـيـابِ مـجـاوراً لِحِـقـابِـهـا[3]

---

(١) العبر: الكثير من كل شيء. ولعله أراد به العبير، وهو الزعفران أو اخلاط من الطيب.

(٢) المرط: كساء من صوف أو نحوه يؤتزر به.

(٣) الحقاب: ما تشده المرأة على وسطها تعلق به الحلي.

-هبي لي ذنبي-

يا فوزُ باللهِ هَبي ذنبِي ليَ اليومَ هَبي
مُنّي عليَّ وارحَمي يا بأبي يا بأبي
مُنّي على من شَفَّهُ حُبُّكُمُ واحْتَسِبي[1]
يا عَسَلي يا سُكَّري يا دُرَّتي يا ذَهبي
صَفا فؤادي لكُمُ فاقتسِمي وانتَهِبي
كيفَ يَطيبُ العَيشُ لي في وارِدَاتِ الكُرَبِ
من حاسدٍ يَقْذِفُنا مُشارفٍ للكَذِبِ
لا تَجْزَعي واصطَبري لِوَصْلِنا وارْتَقِبي
فإن أتَتْكُمْ رُسُلي فاستمعي واقتربي
إن خفتِ أنْ يَفطُنَ بي منكم رقيبٌ فاكتبي
عَزَّ عليَّ بأبي ما صَنَعوا في سَببي
باللهِ يا سيِّدتي لا تغضَبي من غَضَبي
أحيدُ عن بابِكُمُ من خوفِ عمّي وأبي
قيَّدَني الحُبُّ فما من حُبِّكُم من هَرَبِ

---

(١) احتسبي، من قولهم: احتسب عند الله خيراً، قدمه.

قد صِرتُ في الأرضِ كما في الأُفقِ نجمُ الذَّنَبِ[1]
ما بالُ هذا الحبِّ لا يزالُ بي في تَعَبِ
حتى مَتى صبري له يا حَرَبي يا سَلَبي
أُمسي وأُضحي هائماً من حُبِّكم في نَصَبِ
كأنَّما في نَظَري مُخبِّرٌ عن كُرَبي
ذو غُربةٍ عن أهلِه مُجتهِدٌ في الطَّلبِ

★★★

المباعدة تدني

رأيتُكِ يُدنيني إليكِ تباعُدي
فباعَدتُ نفسي لالتِماسِ التَّقرُّبِ
لَتَركي لَكم والوُدُّ فيهِ بَقيَّةٌ
أُؤمِّلُها والحبلُ لم يتقَضَّبِ
أَحَبُّ لِنَفْسي من فِراقٍ على قِلىً
وَقَدْ فاتَني من وُدِّكم كلُّ مَطلبِ

(١) قوله: نجم الذنب، أراد انه صار مشهوراً بها كما يشتهر نجم الذنب حينما يمر في الأفق، أو انه صار منفرداً في الأرض كما ان هذا النجم منفرد في شكله في السماء.

تزوج وتزوجت

إلى الله أشــكــو أنَّ فــوزاً تَــغَــيَّــرتْ
وحـالت عن العَهـدِ القـديمِ فـأُنْهَجَـا[1]
ولمَّـــا رأَتْ جِـــرْصِي عَليهـــا تـحـــرَّجَتْ
وحُقَّ على المعشـوقِ ان يَتَحَـرَّجَـا[2]
وقَــدْ حَسِبتْ ذَنبـاً عــليَّ تَــزوُّجي
فَقُلتُ كِـلانَـا مُـذْنِبٌ قـد تَـزَوَّجَـا
كِـــلانـــا على مَـــا كـــانَ من ذاك مُكْـــرَهٌ
يحـاولُ أمـراً لم يَجِـد منه مَخـرَجَـا
كِـــلانـــا مَشـــوقٌ أنْضَـــجَ الشَّـــوقُ قَلبَـــه
يُعـالـجُ جمـراً في الحشـا متـأجِّجَـا

(١) انهج: أخلق، رث.
(٢) تحرجت: تجنبت الحرج أي الإثم.

-قلبي لها وقلبها لي-

أَهَاجَكَ صَوْتُ قُمْرِيٍ يَنُوْحُ
نعم! فالدَّمعُ مُطَّرِدٌ سَفُوحُ

يلومُ العاذلونَ على التَّصابي
وقد يَهدي إلى الرُّشدِ النَّصيحُ

ألا ما لي وللرُّقباء ما لي
وما لَهُم أأسكتُ أَمْ أصيحُ

ولولا حِطَّةٌ لخلَعتُ جهراً
عِذاري في الهوى إني جَموحُ

لحوني في القريضِ فقلتُ ألهُو
وما مني الهجاءُ ولا المديحُ

يقولُ الناسُ: بُحتَ بكلٍّ هذا
فقلتُ: ومَن بهذا لا يَبُوحُ

أقَرَّ اللَّهُ عيني أَنْ أراني
أعيشُ وحُبُّنا محضٌ صريحُ

لها قلبي الغَداةَ وقلبُها لي
فنحنُ كذاك في جَسَدين روحُ

فليتَ الوصلَ دام لنا سليماً
وعِشنا مثلَ ما قد عَاشَ نُوحُ
فَنَحْيَا عمرنا كَلِفَيْنِ حتى
إذا مُتْنَا تضمَّنَنَا ضَرِيحُ
ألمَّ خيالُ فوزٍ والثُّريًا
قُبيلَ الصُّبحِ غائرةٌ جَنوحُ[1]
بأحسنِ صورةٍ وأتمِّ خلقٍ
يُزَيِّنُ حُسْنَها دَلٌّ مليحُ
فَتَاةٌ قد كساها الحُسْنُ تاجاً
يُلَجْلَجُ حين يُبْصِرُها الفَصيحُ
كدُميةِ بيعَةٍ بالرُّومِ أضحتْ
يُعَظِّمُ عند رؤيتِها المسيحُ[2]

(١) ألم: زار. جنوح: مائل الى الغروب.
(٢) الدُمية: الصورة المزَينة فيها احمرار كالدم.

ـ النظرة القاتلة ـ

أيـا لـكِ نـظرةً أوْدَتْ بِـقـلبـي
وغـادر سَهْمُهَـا جِسمي جَـرِيْحَـا
فـليـتَ أمـيـرَتـي جـادتْ بـأُخْـرَى
فـكـانـتْ بـعضَ مـا يَنْكَـا القُـروحـا
فـإمَّـا أنْ يـكـونَ بـهـا شِـفـائـي
وإمَّـا أن أمـوتَ فـأسْـتـرِيـحـا

★★★

روحان في جسد

خَـلَـطَ الـلَّهُ بـروحـي رُوحَـهـا
فَـهُـمَـا فـي جَـسَـدي شـيءٌ أَحَـدْ
فَـهْـوَ يـحـيـا أبـداً مـا اصـطحبـا
فـإذا مـا افـتَـرَقـا مـاتَ الـجَـسَـدْ

★★★

ـ ذلة وخضوع ـ

قُـوْلا لـمن كَـتَـبَ الـكـتـابَ بـكَـفِّـهِ:
إرْحـمْ، فَـدَيْـتُـكَ، ذِلَّـتي وخُـضُـوعي
مـا زِلـتُ أبكـي مُـذْ قَـرَأْتُ كتـابَـكُمْ
حـتـى مَـحَـوْتُ سُـطُورَهُ بـدُمُـوعي

أَتُعَارُ عَيْنٌ للبكاء؟

غَضِبَ الحبيبُ فهاجَ لي استعبارُ
والله لي ممَّا أُحاذِرُ جَارُ

كُنّا نُغايظُ بالوِصالِ مَعَاشِراً
لهُمُ الغَداةَ بصَرمِنا اسْتِبْشَارُ

إذ لا أرى شِكلاً يكون كَشِكلِنَا
حُسناً ويَجمعُنا هُناك جِوارُ

وكأنّنَا لم نجتَمعْ في مَجلِسٍ
فِيه الغِناءُ ونَرجِسٌ وبَهَارُ[1]

ما كانَ أشْأَمَ مَجلِساً كنّا بِهِ
تلكَ العَشِيَّة والعِدا حُضَّارُ

مَدَنيَّةٌ أمْسَى العِراقُ مَحلَّها
ولَها بزوراء المَدينةِ دارُ[2]

أدنَى قَرابتِنَا إليها أننا
شخصانِ يَجمعُنَا إليه نِزارُ[3]

---

(١) البهار: نبت طيب الرائحة.

(٢) مدنية: امرأة منسوبة الى المدينة. الزوراء: مدينة بغداد.

(٣) نزار: أحد جدود العرب.

يَـا أَيُّـهَـا الـرَّجُـلُ الـمُـعَـذِّبُ قلبـهُ
أَقْـصِـرْ فـإنَّ شِـفـاءَكَ الإقْـصَـارُ

نَـزَفَ البُكَـاءُ دُمُـوعَ عينـكَ فـاستعِـرْ
عَـيْـنـاً لـغـيـركَ دَمْـعُـهَـا مِـدْرارُ

مَـنْ ذا يُـعِـيـرُكَ عَـيْـنَـهُ تبْـكِي بـهـا
أَرَأَيْـتَ عَـيْـنـاً لـلبُـكَـاءِ تُـعَـارُ؟

الـحُـبُّ أوّلُ مـا يَـكُـونُ لـجـاجـةً
تـأتـي بـهِ وتـسـوقُـه الأقْـدَارُ

حتَّى إذا اقْتَحَمَ الفتى لُجَجَ الهوى
جـاءتْ أمُـورٌ لا تُـطاقُ كِـبَـارُ

وإذا نَـظرتَ إلى الـمُـحِـب عَـرَفـتَـهُ
وبـدَت عـلـيـه مِـن الـهـوى آثـارُ

قُـلْ ما بَـدَا لـكَ أن تقـولَ فـرُبَّـمـا
سـاقَ الـبـلاءَ إلى الـفَـتـى الـمِـقـدارُ

يـا فـوزُ هـل لـكِ أن تَـعـودي للَّذي
كُـنَّـا عليـهِ مُـنـذ نـحـنُ صِـغـارُ

فلقـد خَصَصْتُـكِ بـالهـوَى وصـرَفتُـه
عـمَّـن يُـحـدِّثُ عـنـكُـمُ فـيـغَـارُ

هـل تـذكـريـن بـدارِ بكـرٍ لـهْـوَنـا
ولـنـا بـذاك مـخـافـةٌ وحِـذارُ

مُتَطاعِمَينِ بِرِيقِنَا في خَلوةٍ
مثلَ الفِراخِ تَزُقُّها الأطيارُ

أم تذكُرين لِدُلْجَتي متنكِّراً
وعليَّ فروَا عاتقٍ وخِمارُ

فَوَدِدتُ أنَّ الليلَ دَامَ وأنَّه
ذهبَ النهارُ فلا يَكونُ نَهارُ

أفَما لذلك حُرمةٌ محفوظَةٌ
أُفٌّ لِمَنْ هُوَ قاطِعٌ غَدَّارُ

سأُقِرُّ بالذَّنْبِ الذي لَمْ أَجْنِه
إن كان ينفعُ عندَكِ الإقرارُ

ما تأمُرينَ فَدَتكِ نفسي في فتًى
ما تَلْتَقي لِجُفونِه أشْفَارُ

من كانَ يُبْغِضُكمْ فباتَ مُبِيتَهُ
إن الهوى لذَوِي الهوَى ضرَّارُ

صَرَمَ الأحِبَّةُ حَبْلَهُ فكأنَّهُ
إذ غادَرُوه وضَرَّه الإضرارُ

رَجُلٌ تَطَاولَ سُقمُهُ في غُربةٍ
نَزَحَتْ به عن أهلِه الأسفارُ

لا يستطيعُ من الضَّرُورَةِ حِيلةً
أمسى تُرَجَّمُ دونَه الأخبارُ[1]
حتى أُتيحَ لَهُ، وذاكَ لِحَينِهِ،
رَكبٌ رمَتْ بهمُ الفِجاجُ تِجارُ[2]
حَمَلُوه بينَهُم نحِيلاً جِسْمُه
عاري العِظامِ ثيابُه أطمارُ[3]
فثَوى تُقلِّبُه الأكُفُّ مُلَقفاً
ولَهُ تُشدُّ وتُوضَعُ الأكوارُ
حَتى إذا سلَكوا به في مَهمهٍ
قَفرٍ تضِلُّ بهِ القطا وتَحارُ[4]
غَرِضُوا مِنَ النِّضْوِ العليلِ فعطَّلوا
مِنه الرِّكابَ وخلَّفُوه وساروا

(١) ترجم: تكلم بها بالظن.
(٢) الفجاج، الواحد فج: الطريق الواسع.
(٣) أطمار: بالية.
(٤) المهمة: القفر. القطا: طير.

- صاحب راية العشاق -

تَعِسَ الغُرابُ لقد جرى بفِراقِ
هَلاَّ جَرَى بتَزاوُرٍ وتَلاقِ
كيفَ التَّخَلُّصُ من هواكِ وإنَّما
أخذَ الإلَهُ على الهَوَى مِيثَاقي
ورَضِيتُ بعد تَنكُّبي طُرُقَ الهوَى
أن قِيلَ: صاحبُ رايةِ العُشَّاقِ
قد كنتُ أُشفقُ قبلَ أن يقعَ الهوى
لو كانَ عني مُغْنِياً إشْفَاقي

- الإشارة بالأنامل -

يـا مَـنْ يُكـاتِـمُـنـي تَـغَـيُّـرَ قَـلبِـهِ
سـأكُـفُّ نـفـسي قـبـلِ أن تَـتَـبـرَّمَـا
سـأكُـفُّ عـنـكَ وفـي يـديَّ بَـقِـيَّـةٌ
مِنْ حَبـلِ وَصْلكَ قَبْـلَ أنْ يـتصـرَّمَـا
يـا لـلرِّجـالِ لِـعـاشِـقَـيـنِ تـوافَـقَـا
فـتَـخـاطَـبَـا مِـنْ غـيـرِ أن يَـتـكَـلَّـمَـا
حـتـى إذا خَـشِـيـا الـوُشـاةَ وأشـفَـقَـا
جَـعَـلا الإشَـارَةَ بـالأنَـامِـلِ سُـلَّـمَـا

المصادر والمراجع

١ ـ كرم البستاني ـ ديوان العباس بن الأحنف .

٢ ـ القيراوني ـ زهر الآداب وثمر الألباب .

٣ ـ الأصفهاني ـ الأغاني .

٤ ـ ابن المعتز ـ طبقات الشعراء .

٥ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان .

٦ ـ الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد .

٧ ـ الجاحظ ـ الحيوان .

٨ ـ شوقي ضيف ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول .

٩ ـ مصطفى الشكعة ـ الشعر والشعراء في العصر العباسي .

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥
١ ـ سمات مجتمع العصر العباسي ٥
أ ـ مجتمع جديد ٥
ب ـ الشعوبية ٧
ج ـ الزندقة ٩
د ـ المجون ١٢
هـ ـ الرقيق والجواري والغناء ١٤
و ـ الزهد ٢٠
٢ ـ ازدهار الشعر ٢٢
٣ ـ التطور العقلي ٢٤
٤ ـ التجديد في الموضوعات القديمة ٢٦
٥ ـ موضوعات جديدة ٣٢
٦ ـ التجديد في الأوزان والقوافي ٣٥
٧ ـ شعراء الغزل ٣٨
٨ ـ العباس بن الأحنف ٤٠

أ ـ هويته ٤٠
ب ـ صفاته وأخلاقه ٤٠
٩ ـ أخباره ٤٥
أ ـ العباس في مجلس الفضل بن الربيع ٤٥
ب ـ العباس وهارون الرشيد ٤٦
ج ـ إسحاق الموصلي ينصح الفضل باستعمال قول العباس ٤٨
د ـ كيف آثر المأمون العباس على غيره ٤٨
١٠ ـ العباس شاعر الحب والغزل ٤٩
١١ ـ صاحباته ٥١
أ ـ العباس وفوز ٥٢
ب ـ العباس وظلوم ٦٢
١٢ ـ العباس والمرأة ٦٦
١٣ ـ الغزل بالرسائل والكتب ٧١
١٤ ـ الشكوى والتوجع في شعر العباس ٧٦
١٥ ـ العباس وفنون الشعر ٨٣
١٦ ـ صور العشق عند العباس ٨٨
١٧ ـ مقومات شعر العباس ٩٨
١٨ ـ آراء كبار الأدباء والفنانين في العباس ١١٠
١٩ ـ نماذج من شعره ١١٨
ـ زين النساء ١١٨

- كل صديق يرضى ويغضب ١٢٥
- جويرية كلين المخ ١٢٨
- نعيم الحب وعذابه ١٣٠
- ليت الحب لم يخلق ١٣١
- بين الرضا والغضب ١٣٢
- سخطة في كل يوم ١٣٣
- هبي لي ذنبي ١٣٥
- المباعدة تدني ١٣٦
- تزوج وتزوجت ١٣٧
- قلبي لها وقلبها لي ١٣٨
- النظرة القاتلة ١٤٠
- روحان في جسد ١٤٠
- ذلة وخضوع ١٤٠
- أتعار عينٌ للبكاء ١٤١
- صاحب راية العشاق ١٤٥
- الإشارة بالأنامل ١٤٦